الْبَابُ (١١)

مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ

مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي شَرَعَ اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ، وَالَّتِي هِيَ حَقُّ اللهِ تَعَالَى عَلَى: عِبَادِهِ النَّذْرُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾[الحَجُّ:٢٩].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: كُنْتُ نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، قَالَ: (فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ)[١].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: (نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ)[٢].

وَلَمَّا كَانَ النَّذْرُ عِبَادَةً للهِ تَعَالَى، كَانَ مَظِنَّةً أَنْ يُخَالِطَهُ الشِّرْكُ، وَلِأَجْلِ هَذَا بَادَرَ الْمُصَنِّفُ بِذِكْرِ هَذَا الْبَابِ؛ لِيَحْذَرَ الْمُكَلَّفُ مِنْ أَنْ يُلابِسَ إِيمَانَهُ شِرْكٌ، فَقَالَ: **(مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ)** وَ(مِنْ) —هُنَا-: لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ أَنْوَاعٌ: أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا أَنْوَاعٌ، فَمِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ: النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ، ثُمَّ أَوْرَدَ تَحْتَ هَذَا الْبَابِ جُمْلَةً مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَقَالَ:

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ [الإِنْسَانُ: ٧].

أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يُوفُونَ بِنُذُورِهِمْ الَّتِي نَذَرُوا، وَمِنْ لَوَازِمِ الْوَفَاءِ أَنْ يُؤَدَّى الْفِعْلُ عَلَىٰ مُوَافَقَةِ الشَّرْعِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَقَدْ حَمَلَهُمْ عَلَى الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ وَتَجْرِيدِهِ للهِ وَحْدَهُ خَوْفُهُمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّ شَرَّهُ عَلَى الْمُعَانِدِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مُمْتَدٌّ مُنْتَشِرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإِنْسَانُ: ٧].

قَالَ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَوْ أَعْقَبَ الْمُؤَلِّفُ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] لَكَانَ أَوْضَحَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أَمْرٌ، وَالْأَمْرُ بِوَفَائِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٢٠٣٢) (٣/ ٤٨).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (١٨٥٢) (٣/ ١٨).

عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ مَا أُمِرَ بِهِ شَرْعًا[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [الْبَقَرَة:٢٧٠].

إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَغْفُلُ عَمَّا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُونَ إِنْ كَانَ حَسَنًا صَالِحًا كَالنَّفَقَةِ فِي وَجْهِهَا الْمَشْرُوعِ قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً، كَالنَّذْرِ الْخَالِصِ مِنَ الشِّرْكِ، أَوْ كَانَ سَيِّئًا طَالِحًا كَنَفَقَةِ الضِّرَارِ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ، أَوِ النَّذْرِ الْمُخَالِفِ هُدَى الشَّرْعِ، كَالنَّذْرِ لِلْأَنْدَادِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ كُلَّ ذَلِكَ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فِيهِ بِشَارَةٌ وَوَعِيدٌ، أَمَّا الْبِشَارَةُ: فَهِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ نَذَرُوا وَأَنْفَقُوا عَلَى الْهُدَى بِقَصْدِ الْقُرْبَةِ إِلَى اللهِ؛ فَإِنَّ عِلْمَ اللهِ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ يُفْرِحُهُمْ أَنَّ أُجُورَهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوا لَا تُؤَخَّرُ وَلَا تَفُوتُ، وَقَدْ قُرِّرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التَّوْبَة:١٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الْكَهْفُ:٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النِّسَاءُ:٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يُونُسُ:٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَتْ:٤٦].

وَأَمَّا الْوَعِيدُ: فَعَلَى مَنْ زَاغَ عَنِ الْهُدَى، وَأَشْرَكَ بِاللَّهِ فِي عِبَادَتِهِ وَنَذْرِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الْكَهْفُ:٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الْإِسْرَاءُ:١٣- ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الْجَاثِيَة: ٢٩].

قَالَ طَنْطَاوِيٌّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللهِ تَعَالَى بِالْكَائِنَاتِ لَا يَشُكُّ فِيهِ السَّامِعُونَ، فَأُرِيدَ لَازِمُ مَعْنَاهُ وَهُوَ الْجَزَاءُ.

---

(١)ابن عثيمين/القول المفيد(١/ ٢٤٦).

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْكَرِيمَةُ مَعَ إِيجَازِهَا قَدْ أَفَادَتِ الْوَعْدَ الْعَظِيمَ لِلْمُطِيعِينَ، وَالْوَعِيدَ الشَّدِيدَ لِلْمُتَمَرِّدِينَ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ شُئُونِ خَلْقِهِ، فَإِنَّ هَذَا الْيَقِينَ سَيَحْمِلُهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَسَيَحُضُّهُ عَلَى الْمُسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ، خُصُوصاً وَأَنَّ الْجُمْلَةَ قَدْ صَدَرَتْ بِإِنَّ الْمُؤَكِّدَةِ، وَتُلِيَتْ بِلَفْظِ الْجَلَالَةِ الدَّالِّ عَلَى الاسْتِحْقَاقِ الْكَامِلِ لِلْأُلُوهِيَّةِ[(١)].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **(مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ)**[(٢)].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ)**:بَيَانٌ أَنَّ النَّذْرَ إِذَا كَانَ فِي مَيْدَانِ الطَّاعَةِ الْمُقَرَّرَةِ فِي الشَّرْعِ فَهُوَ عِبَادَةٌ وَاجِبَةُ الْوَفَاءِ للهِ تَعَالَى، يُؤَكِّدُهُ حَدِيثُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **(أَوْفِ نَذْرَكَ، فَاعْتَكِفْ لَيْلَةً)**[(٣)].

وَحَدِيثُ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: **(نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ)**[(٤)].

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: **(أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ)**: الطَّاعَةُ مَصْدَرٌ لِلْفِعْلِ طَوَعَ: يَدُلُّ عَلَى الْإِصْحَابِ وَالِانْقِيَادِ. يُقَالُ: طَاعَهُ يَطُوعُهُ، إِذَا انْقَادَ مَعَهُ وَمَضَى لِأَمْرِهِ. وَأَطَاعَهُ بِمَعْنَى طَاعَ لَهُ. وَيُقَالُ لِمَنْ وَافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طَاوَعَهُ[(٥)]، وَالطَّاعَةُ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ.

وَقَوْلُهُ: **(أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ)** أَنْ يُوَافِقَ اللهَ تَعَالَى فِي مَا أَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، بِأَنْ

---

(١) انظر: طنطاوي/تفسيره(١/ ٦٢٠).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٦٩٦)(٨/ ١٤٢).

(٣) أخرجه: البخاري/صحيحه (٢٠٤٢)(٣/ ٥١).

(٤) أخرجه: البخاري/صحيحه (١٨٥٢)(٣/ ١٨).

(٥) ابن فارس/مقاييس اللغة (٣/ ٤٣١).

يُوَافِقَ قَصْدُ الْمُكَلَّفِ قَصْدَ الشَّارِعِ، وَأَنْ يَوَافِقَ عَمَلُهُ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّارِعُ سُبْحَانَهُ.

الثَّالِثَةُ: (**وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ**):فِيهِ بَيَانٌ أَنَّ النَّذْرَ كَمَا يَكُونُ فِي الطَّاعَاتِ الْمَشْرُوعَةِ فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي الْمَعَاصِي الْمَحْظُورَةِ، وَالْحَظْرُ فِيهَا يَقَعُ عَلَى تَفَاوُتٍ، فَبَعْضُهَا يَقَعُ مَعْصِيَةً لَا تَبْلُغُ الشِّرْكَ كَمَنْ يَنْذِرُ أَنْ يَقْطَعَ الرَّحِمَ أَوْ يَهْجُرَ الزَّوْجَةَ أَوْ الصَّدِيقَ، أَوْ يُزَاوِلَ الْمُنْكَرَ، أَوْ لَا يَطْعَمَ عِنْدَ فُلَانٍ أَوْ يَنْذُرَ مَا لَا يَمْلِكُ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ وَهُوَ كَثِيرٌ. وَقَدَّ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**كَانَتْ امْرَأَةٌ أَسَرَهَا الْعَدُوُّ، وَكَانُوا يُرِيحُونَ إِبِلَهُمْ عِشَاءً، فَأَتَتِ الْإِبِلَ تُرِيدُ مِنْهَا بَعِيرًا تَرْكَبُهُ، فَكُلَّمَا دَنَتْ مِنْ بَعِيرٍ رَغَا فَتَرَكَتْهُ، حَتَّى أَتَتْ نَاقَةً مِنْهَا فَلَمْ تَرْغُ فَرَكِبَتْ عَلَيْهَا، ثُمَّ نَجَتْ.** فَقَدِمَتِ الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا رَآهَا النَّاسُ قَالُوا: نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَضْبَاءُ. قَالَتْ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَهَا؛ إِنِ اللهُ أَنْجَانِي عَلَيْهَا. قَالَ: (**بِئْسَمَا جَزَيْتِيهَا لَا نَذْرَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ، وَلَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**)(١).

وَعَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: نَذَرَتْ أُخْتِي أَنْ تَمْشِيَ، إِلَى بَيْتِ اللَّهِ، وَأَمَرَتْنِي أَنْ أَسْتَفْتِيَ لَهَا النَّبِيَّ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُهُ، فَقَالَ ﷺ: (**لِتَمْشِ، وَلْتَرْكَبْ**)(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ: (**مَا بَالُ هَذَا؟**)، قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: (**إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ**)(٣).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلاَ يَقْعُدَ، وَلاَ يَسْتَظِلَّ، وَلاَ يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ**)(٤).

وَبَعْضُهَا يَقَعُ مَعْصِيَةً شِرْكِيَّةً كَمَثَلِ مَنْ يَنْذِرُ أَنْ يَذْبَحَ لِنَبِيٍّ أَوْ مَلَكٍ أَوْ وَلِيٍّ أَوْ وَثَنٍ أَوْ قَبْرٍ، وَدَلِيلُهُ حَدِيثُ ثَابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ**

---

(١) صحيح، أخرجه: أحمد/مسنده(١٩٨٨٣) (٣٣/ ١١٣).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (١٨٦٦)(٣/ ٢٠).

(٣) أخرجه: البخاري/ صحيحه (١٨٦٥) (٣/ ٢٠).

(٤) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٦٧٠٤) (٨/ ١٤٣).

مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟) قَالُوا: لَا، قَالَ: (هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟)، قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ)(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ بِبُوَانَةَ، فَقَالَ: (فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ؟) قَالَ: لَا، قَالَ: (أَوْفِ بِنَذْرِكَ)(٢).

وَمِنَ النَّذْرِ الشِّرْكِيِّ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ قَاسِمٌ الْحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: النَّذْرُ الَّذِي يَنْذِرُهُ أَكْثَرُ الْعَوَامِّ عَلَى مَا هُوَ مُشَاهَدٌ كَأَنْ يَكُونَ لِإِنْسَانٍ غَائِبٌ أَوْ مَرِيضٌ، أَوْ لَهُ حَاجَةٌ ضَرُورِيَّةٌ فَيَأْتِي بَعْضَ الصُّلَحَاءِ فَيَجْعَلُ سُتْرَةً عَلَى رَأْسِهِ فَيَقُولُ يَا سَيِّدِي فُلَانٌ إِنْ رُدَّ غَائِبِي، أَوْ عُوفِيَ مَرِيضِي أَوْ قُضِيَتْ حَاجَتِي فَلَكَ مِنَ الذَّهَبِ كَذَا، أَوْ مِنَ الْفِضَّةِ كَذَا، أَوْ مِنَ الطَّعَامِ كَذَا، أَوْ مِنَ الْمَاءِ كَذَا، أَوْ مِنَ الشَّمْعِ كَذَا، أَوْ مِنَ الزَّيْتِ كَذَا فَهَذَا النَّذْرُ بَاطِلٌ بِالْإِجْمَاعِ(٣).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: وُجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ.

الثَّانِيَةُ: إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً لِلَّهِ؛ فَصَرْفُهُ إِلَى غَيْرِهِ شِرْكٌ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ نَذْرَ الْمَعْصِيَةِ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ.

---

(١) صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (٣٣١٣) (٣/ ٢٣٨).

(٢)صحيح، أخرجه: ابن ماجه/ سننه (٢١٢٩) (١/ ٦٨٨).

(٣) ابن نجيم/ البحر الرائق(٢/ ٣٢٠).

الْبَابُ (١٢)

مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ

الِاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي لَا تُشْرَعُ إِلَّا بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَبِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الْأَعْرَافُ:٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[النَّحْلُ:٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ:٩٧- ٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الْبَقَرَةُ:٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[هُودُ:٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدُّخَانُ:٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مَرْيَمُ:١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [سُورَةُ الْفَلَقِ]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[سُورَةُ النَّاسِ].

وَعَنْ شَكَلِ بنِ حُمَيْدٍ ﷺ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِكَفِّي فَقَالَ: (قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي)[(١)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ أَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفُثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ»[(٢)].

وَعَنِ ابْنِ عَابِسٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: (يَا ابْنَ عَابِسٍ، أَلَا أَدُلُّكَ) أَوْ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟) قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ،

---

(١) صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (١٥٥١)(٢/ ٩٢).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه(٤٤٣٩) (٦/ ١١).

وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. هَاتَانِ السُّورَتَانِ)[1].

وَعَنْ عُثْمَانَ بنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ ﷺ أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ)[2].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) قَالَ: أَقَطْ[3]؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: (فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ)[4].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ قُولُوا: (اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ)[5].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَّمَهَا هَذَا الدُّعَاءَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا)[6].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاَءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ

---

(١) صحيح، أخرجه: النسائي/ سننه (٧٧٩٢) (٧/ ١٩٦).

(٢) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٢٢٠٢)(٤/ ١٧٢٨).

(٣) (أقطُ) أي: أحَسبُ، والهمزةُ فيه للاستفهام- وهو بفتح القاف وضم الطاء المخففة، ويجوز التشديد فيه- أيضاً- والمعنى: الذي ترويه هذا المقدار أو أكثر من ذلك؟ والظاهر: أن المعنى: أهذا يكفيه عن غيره من الأذكار؟ أو هذا يكفيه من شر الشيطان؟ فلهذا قال: "قلت: نعَم". انظر: العيني/شرحه على أبي داود(٢/ ٣٧٦).

(٤) صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه(٤٦٦)(١/ ٣٤٩).

(٥) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٥٩٠) (١/ ٤١٣)

(٦) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/ سننه (٣٨٤٦) (٥/ ١٧).

الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ)(١).

وَعَنْ أَبِي الْيَسَرِ السُّلَمِيِّ وَاسْمُهُ كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو فَيَقُولُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ، وَالتَّرَدِّي، وَالْهَرَمِ، وَالْغَمِّ وَالْغَرَقِ، وَالْحَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ لَدِيغًا)**(٢).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: **(اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)**(٣).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي طَلْحَةَ: **(الْتَمِسْ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى خَيْبَرَ)** فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ مُرْدِفِي، وَأَنَا غُلَامٌ رَاهَقْتُ الْحُلُمَ، فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، إِذَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)**(٤).

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي بَكْرَةَ، أَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَا أَبَتِ إِنِّي أَسْمَعُكَ تَدْعُو كُلَّ غَدَاةٍ **(اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، تُعِيدُهَا ثَلَاثًا، حِينَ تُصْبِحُ، وَثَلَاثًا حِينَ تُمْسِي)**، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو بِهِنَّ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ، قَالَ عَبَّاسٌ فِيهِ: وَتَقُولُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ تُعِيدُهَا ثَلَاثًا حِينَ تُصْبِحُ، وَثَلَاثًا حِينَ تُمْسِي، فَتَدْعُو بِهِنَّ)** فَأُحِبُّ أَنْ أَسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ(٥).

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو، يَقُولُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ، وَالْقَسْوَةِ وَالْغَفْلَةِ، وَالذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْكُفْرِ، وَالشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ، وَالسُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ، وَالْجُنُونِ، وَالْبَرَصِ وَالْجُذَامِ،**

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٣٤٧)(٨/ ٧٥)، مسلم/صحيحه(٢٧٠٧)(٤/ ٢٠٨٠).

(٢) صحيح، أخرجه: الحاكم/مستدركه(١٩٤٨)(١/ ٧١٣).

(٣) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٢٧٣٩)(٤/ ٢٠٩٧).

(٤) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٢٨٩٣)(٤/ ٣٦) .

(٥) حسن، أخرجه: أبو داود/سننه(٥٠٩٠)(٤/ ٣٢٤).

وَسَيِّءِ الْأَسْقَامِ)[(١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ، أَوْ أُظْلَمَ)**[(٢)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: **(إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ)**[(٣)].

وَعَنْ عَمْرِو بنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **(إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ)**[(٤)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: **(اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ)**[(٥)].

فَأَنْتَ تَرَى مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ أَنَّ الاِسْتِعَاذَةَ لَا تُشْرَعُ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى فَإِذَا صُرِفَتْ لِغَيْرِهِ سُبْحَانَهُ كَانَتْ شِرْكًا؛ لِأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَعْصِمَكَ مِنَ الشَّرِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، دِقِّهِ وَجِلِّهِ إِلَّا اللهُ.

وَالاِسْتِعَاذَةُ لَهَا مَعْنَيَانِ: مَعْنَى فِي اللُّغَةِ، وَمَعْنَى فِي الاِصْطِلَاحِ:

الِاسْتِعَاذَةُ فِي اللُّغَةِ: **(عَوَذَ)** الْعَيْنُ وَالْوَاوُ وَالذَّالُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُوَ الِالْتِجَاءُ إِلَى الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ لَصِقَ بِشَيْءٍ أَوْ لَازَمَهُ.

قَالَ الْخَلِيلُ: تَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَي: أَلْجَأُ إِلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، عَوْذًا أَوْ عِيَاذًا.

---

(١) صحيح، أخرجه: ابن حبان/صحيحه(١٠٢٣)(٣/ ٣٠٠).

(٢) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(١٥٤٤)(٢/ ٩١).

(٣) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٣٧١)(٤/ ١٤٧).

(٤) حسن، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٥٢٨)(٥/ ٥٤١).

(٥) أخرجه: مسلم/صحيحه (٤٨٦)(١/ ٣٥٢).

يُقَالُ: فُلَانٌ عِيَاذٌ لَكَ، أَيْ: مَلْجَأٌ، وَقَوْلُهُمْ: مَعَاذَ اللَّهِ، مَعْنَاهُ أَعُوذُ بِاللَّهِ. وَكَذَا أَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلَّتِي اسْتَعَاذَتْ مِنْهُ: **(لَقَدْ عُذْتِ بِمُعَاذٍ)**[1]، قَالَ: وَالْعُوذَةُ وَالْمَعَاذَةُ: الَّتِي يُعَوَّذُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ فَزَعٍ أَوْ جُنُونٍ[2].

وَالْعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، وَاللِّيَاذِ لِطَلَبِ الْخَيْرِ.

وَالِاسْتِعَاذَةُ فِي الشَّرْعِ: اللُّجُوءُ إِلَى اللهِ ﷻ وَالِاعْتِصَامُ بِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ[3].

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دَلِيلَيْنِ عَلَى أَنَّ الاسْتِعَانَةَ بِغَيْرِ اللهِ مِنَ الشِّرْكِ، أَحَدُهُمَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَالْآخَرُ مِنَ السُّنَّةِ، فَقَالَ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ [الجِنُّ:٦].

أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَلْجَؤُونَ إِلَى الْجِنِّ بِطَلَبِ الْعَافِيَةِ مِنْ شُرُورِهِمْ.

قَالَ أَبُو الْفِدَاءِ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَوْلُهُ: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ أَيْ: كُنَّا نَرَى أَنَّ لَنَا فَضْلًا عَلَى الْإِنْسِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُوذُونَ بِنَا، أَيْ: إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا أَوْ مَكَانًا مُوحِشًا مِنَ الْبَرَارِي وَغَيْرِهَا كَمَا كَانَ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعُوذُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجَانِّ، أَنْ يُصِيبَهُمْ بِشَيْءٍ يَسُوؤُهُمْ كَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ أَعْدَائِهِ فِي جِوَارِ رَجُلٍ كَبِيرٍ وَذِمَامِهِ وَخَفَارَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتِ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَعُوذُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ ﴿**فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ أَيْ: خَوْفًا وَإِرْهَابًا وَذُعْرًا، حَتَّى تَبْقَوْا أَشَدَّ مِنْهُمْ مَخَافَةً وَأَكْثَرَ تَعَوُّذًا بِهِمْ[4].

وَمَا دَرَى هَؤُلَاءِ أَنَّهُ لَا عَاصِمَ لَهُمْ وَلَا مُجِيرَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [يُونُس:١٠٧].

---

(١) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده(٢٢٨٦٩)(٣٧/ ٥١١).

(٢) ابن فارس/ مقاييس اللغة (٤/ ١٨٤).

(٣) انظر: البغوي/تفسيره(٣/ ٩٦).

(٤) ابن كثير/ تفسيره (٨/ ٢٣٩).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: (يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)[١].

وَمَا دَرَى هَؤُلَاءِ أَنَّ الِالْتِجَاءَ إِلَى غَيْرِ اللهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ شِرْكٌ، لَا يَبْلُغُ بِهِ الْمَرْءُ مُبْتَغَاهُ وَمُرَادَهُ، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[هُودُ:٤٢-٤٣].

فَكُلُّ مَنْ يُنْزِلُ حَاجَتَهُ بِغَيْرِ اللهِ يُعَاقَبُ بِعَدَمِ قَضَائِهَا، سَوَاءٌ أَنْزَلَهَا بِجِنٍّ أَوْ بِإِنْسٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[الْحَشْرُ:١١-١٢].

وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ، بِالْغِنَى، إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ، أَوْ غِنًى عَاجِلٍ)[٢].

وَقَدْ كَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَطْلُبُونَ الْعِوَذَ مِنْ غَيْرِ اللهِ فَيَكِلُهُمُ اللهُ لِلْأَغْيَارِ، فَلَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا خَوْفاً وَضَلَالاً، وَقَدْ تَأَيَّدَ مَدْلُولُ الْآيَةِ بِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُكَيْمٍ أَبِي مَعْبَدٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ)[٣].

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَطْلُبَ اللَّجَأَ وَالْحِمَايَةَ مِنْ غَيْرِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ أَكْمَلُ مُعِينٍ، وَأَجَلُّ نَاصِرٍ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

(١) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٢٥١٦)(٤/ ٦٦٧).

(٢) صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (١٦٤٥)(٢/ ١٢٢).

(٣) حسن، أخرجه: الترمذي/ سننه (٢٠٧٢) (٤/ ٤٠٣).

﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾[الزُّمَرُ: ٣٦- ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آلُ عِمْرَانَ: ١٧٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يُوسُفُ:٣٣].

وَلَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ لَيَنْصُرَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَلَيَكْفِيَنَّ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)[1]، وَ(الْوَاوُ) فِي الْحَدِيثِ لِلْقَسَمِ فَتَأَمَّلْهُ، وَمَنْ يَتَجَاوَزْ ذَلِكَ يَقَعْ فِي الشِّرْكِ، وَلَا يَجِدُ إِلَّا الْخُذْلَانَ وَالذُّلَّ وَالصَّغَارَ.

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: أَنَّ الْمُصَنِّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَدَأَ الْبَابَ بِالِاسْتِعَاذَةِ الشِّرْكِيَّةِ، وَأَنَّ مَآلَ مَنْ يَسْلُكُهَا هُوَ الْخَوْفُ وَالذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ فِي الدُّنْيَا، وَالْإِثْمُ، وَالْعُقُوبَةُ فِي الْأُخْرَى، ثُمَّ أَوْرَدَ بَعْدَهَا صُورَةً لِأُولَئِكُمُ الَّذِينَ وَحَّدُوا اللهَ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَلَمْ يَلْبِسُوا تَوْحِيدَهُ بِشِرْكٍ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الْحِمَايَةَ وَالْعَافِيَةَ مِنْ شَرِّ مَا يَضُرُّ وَيُؤْذِي، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُؤَخِّرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ.

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٥٠٢)(٨/ ١٠٥).

(٢) أخرجه: مسلم/صحيحه(٢٧٠٨)(٤/ ٢٠٨٠).

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: (**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا**) عَامٌّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ ذَكَرَاً أَوْ أُنْثَى، وقَوْلُهُ: (**مَنْزِلًا**) نَكِرَةٌ وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، فَإِنَّهَا تَعُمُّ كُلَّ مَنْزِلٍ مَهْمَا كَانَ مَخُوفَاً.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: (**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**) فِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ الاِسْتِعَاذَةِ بِصِفَاتِ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْكَلَامَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِ اللهِ تَعَالَى، وَالصِّفَةُ لَا تَنْفَكُّ عَنِ الْمَوْصُوفِ، فَدَلَّ أَنَّ الْمُسْتَعِيذَ بِصِفَاتِ اللهِ كَالْمُسْتَعِيذِ بِذَاتِ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَسْمَاءُ مِثْلُ الصِّفَاتِ، يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ الاِسْتِعَاذَةُ بِهَا مِنْ شُرُورِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا**﴾ [مَرْيَمُ: ١٨].

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ**) دَلَّ بِاللَّازِمِ الْإِشَارِيِّ أَنَّ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، إِذْ لَوْ كَانَ مَخْلُوقَاً؛ لَمَا جَازَ الاِسْتِعَاذَةُ بِكَلِمَاتِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ بِالْمَخْلُوقِ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: (**التَّامَّاتِ**) يَدَلُّ بِالضَّرُورَةِ عَلَى الْبَرَاءَةِ مِنَ النَّقْصِ، وَقَدْ جَاءَ التَّمَامُ وَالْكَمَالُ مُقَرَّرَاً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [الْأَنْعَامُ:١١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فُصِّلَتْ:٤١-٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ**﴾ [الطَّارِقُ:١٣-١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [الزُّمَرُ:٢٧- ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا**﴾ [الْكَهْفُ:١-٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ [الْإِسْرَاءُ:٩].

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: (**مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**) (مَا): اسْمٌ مَوْصُولٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ، لَكِنَّهَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ قَبِيلِ الْعَامِ الْمَخْصُوصِ، فَإِنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِمَا لَا شَرَّ فِيهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ طَيِّبَةٌ لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ قَطٌّ، كَالْجَنَّةِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَالرُّسُلِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهَا خَيْرٌ مَحْضٌ.

السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (**لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ**) دَلَّ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ، وَكَمَالِ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ، وَعَظِيمِ

جُودِهِ وَإِكْرَامِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَعَاذَ بِهِ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ كَفَاهُ وَآوَاهُ، وَأَمَّنَهُ وَحَمَاهُ مِنْ كُلِّ مَا يَضُرُّ.

الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: **(شَيْءٌ)** نَكِرَةٌ مَسْبُوقَةٌ بِنَفْيٍ، فَعَمَّتْ كُلَّ الْأَشْيَاءِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ، عَزِيزٌ لَا يُغَالَبُ، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا إِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

التَّاسِعَةُ: قَوْلُهُ: **(حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)** فِيهِ كَمَالُ الْإِحْسَانِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَائِلَ هَذَا الذِّكْرِ بِتَسْلِيمٍ وَيَقِينٍ وَكَمَالِ إِذْعَانٍ يَبْقَى فِي ذِمَّةِ اللهِ، وَحِرْزِهِ الْمَتِينِ، وَمَنَعَتِهِ الَّتِي لَا تُقْهَرُ حَتَّى يَقُومَ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي ذَكَرَ اللهَ فِيهِ بِهَذَا الذِّكْرِ، يُؤَكِّدُ هَذَا حَدِيثُ أَبِي التَّيَّاحِ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَنْبَشٍ كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ قَالَ: جَاءَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَوْدِيَةِ، وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجِبَالِ، وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُرْعِبَ مِنْهُ - قَالَ جَعْفَرٌ أَحْسَبُهُ قَالَ وَجَعَلَ يَتَأَخَّرُ - فَجَاءَ جِبْرِيلُ وَقَالَ: **(يَا مُحَمَّدُ قُلْ: قَالَ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَذَرَأَ، وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ) قَالَ: (فَطُفِئَتْ شُعْلَةُ الشَّيْطَانِ، وَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى)**(١).

الْعَاشِرَةُ: فِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ بِالْمَفْهُومِ الْمُخَالِفِ: أَنَّ الَّذِي يَنْزِلُ مَنْزِلاً لَمْ يَقُلْ فِيهِ هَذَا الذِّكْرَ الْمَأْثُورَ لَمْ يُدْرِكْ تِلْكَ الْحِرَاسَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ عُرْضَةً أَنْ يَبْلُغَهُ الشَّرُّ وَالْأَذَى؛ يُؤَكِّد هَذَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمَ قَالَ: مَا نِمْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟)** فَقَالَ: لَدَغَتْنِي عَقْرَبٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ)**(٢).

وَعَنْ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ)** وَكَانَ أَبَانُ، قَدْ أَصَابَهُ طَرَفُ

---

(١) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده، (١٥٤٦١) (٢٤/٢٠٢).

(٢) صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (٣٨٩٨) (٤/١٣).

فَالِجٍ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ أَبَانُ: «مَا تَنْظُرُ؟ أَمَا إِنَّ الحَدِيثَ كَمَا حَدَّثْتُكَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْهُ يَوْمَئِذٍ لِيُمْضِيَ اللَّهُ عَلَيَّ قَدَرَهُ»(١).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلٌ صَادِقٌ عَلِمْنَا صِدْقَهُ دَلِيلاً وَتَجْرِبَةً، فَإِنِّي مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا الْخَبَرَ عَمِلْتُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَضُرَّنِي شَيْءٌ إِلَىٰ أَنْ تَرَكْتُهُ، فَلَدَغَتْنِي عَقْرَبٌ بِالْمَهْدِيَّةِ لَيْلاً، فَتَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي فَإِذَا بِي قَدْ نَسِيتُ أَنْ أَتَعَوَّذَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ(٢).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْجِنِّ.

الثَّانِيَةُ: كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ.

الثَّالِثَةُ: الِاسْتِدْلَالُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، قَالُوا: لِأَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكٌ.

الرَّابِعَةُ: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ؛ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ.

---

(١) حسن صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه(٣٣٨٨)(٥/ ٤٦٥).

(٢) المناوي/ فيض القدير (١/٤٤٦).

الْبَابُ (١٣)

مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

إِنَّ الِاسْتِغَاثَةَ فِي الْأُمُورِ غَيْرِ الْمَقْدُورَةِ لِلْمَخْلُوقِ عِبَادَةٌ لَا تُشْرَعُ إِلَّا بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ؛ فَيَكُونُ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُغِيثُ الَّذِي يَنْصُرُ مَنْ دَعَاهُ، وَيُعِينُ مَنِ اسْتَغَاثَهُ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الغِيَاثُ هُوَ الْمُغِيثُ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ: غِيَاثُ الْمُسْتَغِيثِينَ، وَمَعْنَاهُ: الْمُدْرِكُ عِبَادَهُ فِي الشَّدَائِدِ إِذَا دَعَوْهُ وَهُوَ مُجِيبُهُمْ وَمُخَلِّصُهُمْ[(١)].

وَالِاسْتِغَاثَةُ: مَصْدَرُ اسْتَغَاثَهُ بِمَعْنَى نَصَرَهُ وَأَعَانَهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ[(٢)]، **قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:** الِاسْتِغَاثَةُ طَلَبُ الْغَوْثِ، وَهُوَ: إِزَالَةُ الشِّدَّةِ، كَالِاسْتِنْصَارِ، وَالِاسْتِعَانَةُ: طَلَبُ الْمَعُونَةِ[(٣)].

وَالِاسْتِغَاثَةُ: نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي لَا تُشْرَعُ -فِي الْأُمُورِ غَيْرِ الْمَقْدُورَةِ لِلْمَخْلُوقِ- إِلَّا للهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى الْمُغِيثَ أَيِ الَّذِي يَنْصُرُ عَبْدَهُ وَيُعِينُهُ إِذَا طَلَبَ الْغَوْثَ مِنْهُ.

وَلَمَّا كَانَتْ الِاسْتِغَاثَةُ عُرْضَةً لِلشِّرْكِ، وَأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَطْلُبُ الْغَوْثَ، وَكَشْفَ الضُّرِّ مِنَ الْمَخْلُوقِ الْعَاجِزِ، وَيَدَعُ الْخَالِقَ الْقَادِرَ؛ بَوَّبَ لَهَا الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتَابِهِ بَابًا، فَقَالَ: (بابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ).

وَلَا يَخْفَى أَنَّ **(مِنْ)** مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْعُنْوَانِ لِلتَّبْعِيضِ؛ تَنْبِيهًا أَنَّ الشِّرْكَ أَنْوَاعٌ عَدِيدَةٌ، وَأَنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللهِ نَوْعٌ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: **(أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ)** أَيْ: يَطْلُبُ كَشْفَ الضُّرِّ، وَدَفْعَ الشِّدَّةِ مِنْ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى، فَجَعَلَ الْمَخْلُوقَ الْعَاجِزَ مُكَافِئًا لِلْخَالِقِ الْقَادِرِ؛ كَأَنَّ حَالَهُ يَقُولُ: كَمَا أَنَّ للهِ أَسْمَاءً وَصِفَاتٍ فِي الرُّبُوبِيَّةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ لَا يُعْجِزُهُ أَمْرٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَأَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِمَا فِيهِ تَحْتَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمُنْقَادٌ وَمُطَوَّعٌ وِفْقَ إِرَادَتِهِ، فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ -بِزَعْمِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ- قَادِرٌ عَلَى كَشْفِ الضُّرِّ، وَمَنْحِ النَّفْعِ، وَالْحَقُّ خِلَافُ هَذَا، فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ أَيًّا كَانَ، وَمَهْمَا عَظُمَ

---

(١) ابن تيمية/ مجموع الفتاوى (١/ ١١١).

(٢) انظر: ابن فارس/مقاييس اللغة(٤/ ٤٠٠).

(٣) ابن تيمية/ مجموع الفتاوى (١/ ١٠٥).

وَكَبُرَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضُرّاً وَلَا نَفعاً وَلَا مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَغَاثَ بِهِ، فَلَا يُدْعَى بِكَشْفِ الضُّرِّ، وَطَلَبِ النَّفْعِ، فَمَنِ اسْتَغَاثَ بِهِ أَوْ دَعَاهُ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، وَاتَّخَذَ لَهُ نِدّاً، فَقَدْ عُلِمَ مِنْ دِينِ اللهِ وَعَقِيدَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ أَنَّهُ لَا يُدْعَى إِلَّا اللهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِرُ:٦٠].

وَعَنِ النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قَالَ: (**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**)(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**)(٢).

عَلَى أَنَّ الْمُصَنِّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ الاسْتِغَاثَةَ وَالدُّعَاءَ وَفَصَلَ بَيْنَهُمَا بـ (**أَوْ**) الَّتِي تُفِيدُ التَّنْوِيعَ، وَقَدْ فَرَّقَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بَيْنَ الِاسْتِغَاثَةِ وَالدُّعَاءِ، فَقَالُوا: إِنَّ الاسْتِغَاثَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا عِنْدَ الْكَرْبِ، وَأَمَّا الدُّعَاءُ فَإِنَّهُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ؛ يَكُونُ عِنْدَ الْكَرْبِ، وَعِنْدَ الدَّعَةِ وَالْعَافِيَةِ(٣).

وَاعْلَمْ: أَنَّ كُلاًّ مِنَ الِاسْتِغَاثَةِ وَالدُّعَاءِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: مَشْرُوعٍ وَمَمْنُوعٍ:

أَمَّا الاسْتِغَاثَةُ الْمَشْرُوعَةُ: فَهِيَ مَا كَانَتْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَالاسْتِغَاثَةِ بِاللَّهِ فِي النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَطَلَبِ الْهِدَايَةِ، وَسُقْيَا الْمَطَرِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الْأَنْفَالُ:٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الْأَحْقَافُ:١٧].

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَجُلاً، دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: (**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**) قَالَ أَنَسٌ ﷺ: وَلاَ وَاللَّهِ، مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلاَ قَزَعَةً وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلاَ دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ

---

(١) صحيح، أخرجه: الترمذي/ سننه (٢٩٦٩)(٥/ ٢١١).

(٢) حسن، أخرجه: الترمذي/ سننه (٣٣٧٣)(٥/ ٤٥٦).

(٣) عبد الرحمن آل الشيخ/ فتح المجيد (١٦٥-١٦٦).

السَّماءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، فَلاَ وَاللَّهِ، مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا عَنَّا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **(اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ)** قَالَ: فَأَقْلَعَتْ، وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ[(١)].

وَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بَوَاكِي، فَقَالَ: **(اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا، مَرِيئًا مَرِيعًا، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ)**، قَالَ: فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ[(٢)].

وَيَلْحَقُ بِالاسْتِغَاثَةِ الْمَشْرُوعَةِ الِاسْتِغَاثَةُ بِالْمَخْلُوقِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ**﴾[الْقَصَص:١٥].

وَمِنْهَا: طَلَبُ الْغَوْثِ عِنْدَ قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَصِيَالِ الصَّائِلِ، وَاقْتِحَامِ الْعَدُوِّ؛ قَالَ الْعَبَّاسُ رضي الله عنه: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نَعَامَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بِبَغْلَتِهِ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ الْعَبَّاسُ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ)** فَنَادَيْتُهُمْ قَالَ: فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّمَا عَطَفْتُهُمْ حِيْنَ مَا سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةَ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَيْكَاهُ يَا لَبَيْكَاهُ، قَالَ: فَاقْتَتَلُوا هُمْ وَالْكُفَّارُ، وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ قَصُرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه(١٠١٤)(٢/ ٢٨)، مسلم/صحيحه(٨٩٧)(٢/٦١٢).

(٢)صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (١١٦٩) (١/ ٣٠٣).

رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ)** قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: **(انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ)** قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ)**(٢).

وَالدُّعَاءُ الْمَشْرُوعُ نَوْعَانِ:

الْأَوَّلُ: دُعَاءُ عِبَادَةٍ: بِأَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ قَائِمًا بِأَمْرِ اللهِ صَلَاةً وَصِيَامًا وَزَكَاةً وَحَجًّا وَجِهَادًا وَغَيْرَهَا مِمَّا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي تَخُصُّ اللهَ تَعَالَى وَلَا تُشْرَعُ لِغَيْرِهِ.

وَالثَّانِي: دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ: وَهُوَ طَلَبُ مَا يَنْفَعُ، كَطَلَبِ الْعَافِيَةِ وَالشِّفَاءِ، وَهِدَايَةِ الْوَلَدِ، وَالسَّلَامَةِ مِمَّا يَضُرُّ، كَالْكُفْرِ وَالْفَقْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَحْوِهَا، وَهُوَ أَيْضًا لَا يُشْرَعُ إِلَّا مِنَ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[الْبَقَرَةُ:١٨٦].

أَيْ: إِذَا سَأَلَكَ -يَا رَسُولَ اللهِ- عِبَادِي عَنْ ذَاتِي، أَوْ صِفَاتِي، أَوْ أَفْعَالِي؛ فَقُلْ لَهُمْ: إِنِّي قَرِيبٌ مِنْهُمْ بِعِلْمِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي وَسُلْطَانِي، لَا يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ، أَسْمَعُ دُعَاءَهُمْ إِذَا دَعَوْنِي، وَأُلَبِّي حَوَائِجَهُمْ إِذَا طَلَبُونِي، وَأُؤَمِّنُهُمْ مِمَّا يَخَافُونَ إِذَا لَجَأُوا إِلَيَّ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي فِيمَا شَرَعْتُ لَهُمْ فِي كِتَابِي وَسُنَّةِ نَبِيِّي، وَلْيُصَدِّقُوا بِي أَنِّي الْمَعْبُودُ الْحَقُّ؛ رَجَاءَ أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: **(يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا**

---

(١) أخرجه: مسلم/صحيحه(١٧٧٥)(٣/ ١٣٩٨).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه(٧٢٨٣)(٩/ ٩٣).

اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)[1].

وَالاسْتِغَاثَةُ الْمَحْظُورَةُ: أَنْ يُسْتَغَاثَ بِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى فِي أُمُورٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللهُ، كَالِاسْتِغَاثَةِ بِالْمَخْلُوقِ فِي دَفْعِ الْأَنْوَاءِ وَالْأَعَاصِيرِ وَالرِّيَاحِ الْعَاصِفَةِ، أَوْ مَنْعِ الزَّلَازِلِ وَالْبَرَاكِينِ، أَوْ حِفْظِ النَّفْسِ مِنَ الْمَرَضِ أَوِ الْمَوْتِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا طَاقَةَ لِلْمَخْلُوقِ بِهِ، فَهُوَ شِرْكٌ أَكْبَرُ يَجْتَمِعُ فِيهِ شِرْكُ الْأُلُوهِيَّةِ وَهُوَ صَرْفُ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى، وَشِرْكُ الرُّبُوبِيَّةِ فِي اعْتِقَادِ النِّدِّ الْمُكَافِىءِ للهِ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى جَلْبِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الضُّرِّ.

وَالدُّعَاءُ الْمَحْظُورُ نَوْعَانِ: دُعَاءُ عِبَادَةٍ، وَدُعُاءُ مَسْأَلَةٍ، فَإِذَا صَرَفَهُمَا الْمَرْءُ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى كَانَ ذَلِكَ شِرْكَاً مُرَكَّبَاً، كَالَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الِاسْتِغَاثَةِ.

وَلِأَجْلِ السَّلَامَةِ مِنْ شِرْكِ الِاسْتِغَاثَةِ وَالدُّعَاءِ؛ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ هَذَا الْبَابَ، وَأَوْرَدَ فِيهِ جُمْلَةً مِنْ أَدِلَّةِ السَّمْعِ تَجْعَلُ الْمَرْءَ عَلَى بَصِيرَةٍ؛ قَصْدَاً إِلَى تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاءَةِ مِمَّا قَدْ يُلَابِسُهُ مِنَ الشِّرْكِ، فَقَالَ:

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[يُونُس: ١٠٦-١٠٧] الآيَةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أَيْ: وَلَا تَدْعُ غَيْرَهُ تَعَالَى (دُعَاءَ عِبَادَةٍ، وَهُوَ مَا فِيهِ مَعْنَى الْقُرْبَةِ وَالْجَرْيِ عَلَى غَيْرِ الْمُعْتَادِ فِي طَلَبِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ) لَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِقْلَالِ، وَلَا عَلَى سَبِيلِ الِاشْتِرَاكِ بِوَسَاطَةِ الشُّفَعَاءِ -مَا لَا يَنْفَعُكَ إِنْ دَعَوْتَهُ لَا بِنَفْسِهِ وَلَا بِوَسَاطَتِهِ، وَلَا يَضُرُّكَ إِنْ تَرَكْتَ دُعَاءَهُ وَلَا إِنْ دَعَوتَ غَيْرَهُ.

قَالَ ابنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يُومِىءُ إِلَى وَجْهِ النَّهْيِ عَنْ دُعَائِكَ، إِذْ دُعَاءُ أَمْثَالِهَا لَا يَقْصِدُهُ الْعَاقِلُ... وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْفَرْضِ تَنْبِيهُ النَّاسِ عَلَى فَظَاعَةِ عِظَمِ هَذَا الْفِعْلِ حَتَّى لَوْ فَعَلَهُ أَشْرَفُ الْمَخْلُوقِينَ لَكَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ

(١) صحيح، أخرجه: الترمذي/سننه (٢٥١٦)(٤/ ٦٦٧).

﴿قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَرُ:٦٥][1].

وَقَالَ ابنُ عُثَيْمِين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ أَيْ: لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، وَهَذَا الْقَيْدُ لَيْسَ شَرْطاً بِحَيْثُ يَكُونُ لَهُ مَفْهُومٌ؛ فَيَكُونُ لَكَ أَنْ تَدْعُوَ مَنْ يَنْفَعُكَ وَيَضُرُّكَ، بَلْ هُوَ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّ الْمَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ نَفْعٌ وَلَا ضَرَرٌ...كُلُّ قَيْدٍ يُرَادُ بِهِ بَيَانُ الْوَاقِعِ؛ فَإِنَّهُ كَالتَّعْلِيلِ لِلْحُكْمِ[2].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: فَإِنْ فَعَلْتَ هَذَا بِأَنْ دَعَوْتَ غَيْرَهُ، فَإِنَّكَ أَيُّهَا الْفَاعِلُ فِي هَذِهِ الْحَالِ مِنْ طَغَامَةِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمُ الظُّلْمَ الْأَكْبَرَ، وَهُوَ الشِّرْكُ الَّذِي فَسَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لُقْمَانُ: ١٣] فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ دُعَاءُ اللهِ وَحْدَهُ هُوَ أَعْظَمُ الْعِبَادَةِ وَمُخَّهَا - كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ- كَانَ دُعَاءُ غَيْرِهِ هُوَ أَعْظَمَ الشِّرْكِ وَمُخَّهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هَذَا الْقَيْدُ لَيْسَ شَرْطاً بِحَيْثُ يَكُونُ لَهُ مَفْهُومٌ، فَيَكُونُ لَكَ أَنْ تَدْعُوَ مَنْ يَنْفَعُكَ وَيَضُرُّكَ، بَلْ هُوَ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّ الْمَدْعُوَّ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ نَفْعٌ وَلَا ضَرَرٌ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الْأَحْقَافُ:٥]، وَكُلُّ قَيْدٍ يُرَادُ بِهِ بَيَانُ الْوَاقِعِ فَإِنَّهُ كَالتَّعْلِيلِ لِلْحُكْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الْبَقَرَةُ:٢١]، أَيْ: اعْبُدُوهُ لِأَنَّهُ خَلَقَكُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الْأَنْفَالُ:٢٤]، أَيْ: لِأَنَّهُ لَا يَدْعُوكُمْ إِلَّا لِمَا يُحْيِيكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ مُؤَكِّدَةٌ لِمَا قَبْلَهَا دَاحِضَةٌ لِشُبْهَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللهِ بِأَنَّهُمْ طَالَمَا اسْتَفَادُوا مِنْ دُعَائِهِمْ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ فَشُفِيَتْ أَمْرَاضُهُمْ، وَكُبِتَتْ أَعْدَاؤُهُمْ، وَكُشِفَ الضُّرُّ عَنْهُمْ، وَأُسْدِيَ الْخَيْرُ إِلَيْهِمْ، يَقُولُ تَعَالَى لِكُلِّ مُخَاطَبٍ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ الْإِسْلَامِ، بِكَلَامِ اللهِ وَتَبْلِيغِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿بِضُرٍّ﴾ كَمَرَضٍ يُصِيبُكَ بِمُخَالَفَةِ سُنَنِهِ فِي حِفْظِ الصِّحَّةِ،

---

(١) ابن عاشور/التحرير والتنوير (١١/ ٣٠٤).

(٢)ابن عثيمين/مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٢٥٦).

أَوْ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالثَّمَرَاتِ بِأَسْبَابِهِ لَكَ فِيهِ عِبْرَةٌ، أَوْ ظُلْمٍ يَقَعُ عَلَيْكَ مِنَ الْحُكَّامِ الْمُسْتَبِدِّينَ، أَوْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ الْمُعْتَدِينَ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ وَقَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا يَعْرِفُهُ خَلْقُهُ بِتَجَارِبِهِمْ، كَكَشْفِ الْأَمْرَاضِ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِهَا، وَخَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ الَّتِي تُدَاوَى بِهَا، وَتَجَارِبِ الْأَعْمَالِ الْجِرَاحِيَّةِ الَّتِي يُزَاوِلُهَا أَهْلُهَا، فَعَلَيْكَ أَنْ تَطْلُبَهَا مِنْ أَسْبَابِهَا، وَتَكِلَ أَعْمَالَهَا إِلَى أَرْبَابِهَا، وَتَأْتِيَ سَائِرَ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا، مَعَ الْإِيمَانِ وَالشُّكْرِ لِمُسَخِّرِهَا، فَإِنْ جَهِلْتَ الْأَسْبَابَ أَوْ أَعْيَاكَ أَمْرُهَا، فَتَوَجَّهْ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ، وَادْعُهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينُ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ وَحْدَهُ، يُسَخِّرْ لَكَ مَا شَاءَ أَوْ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، أَوْ يَشْفِكَ مِنْ مَرَضِكَ بِمَحْضِ فَضْلِهِ، كَمَا ضَرَبَ لَكَ الْأَمْثَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ كِتَابِهِ ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يَهَبْهُ بِتَسْخِيرِ أَسْبَابِهِ لَكَ، وَبِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا سَعْيٍ مِنْكَ ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أَيْ: فَلَا أَحَدَ وَلَا شَيْءَ يَرُدُّ فَضْلَهُ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَتُهُ، فَمَا شَاءَ كَانَ حَتْمًا، فَلَا تَرْجُ الْخَيْرَ وَالنَّفْعَ إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَا تَخَفْ رَدَّ مَا يُرِيدُهُ لَكَ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يُصِيبُ بِالْخَيْرِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِكَسْبٍ وَبِغَيْرِ كَسْبٍ وَبِسَبَبٍ مِمَّا قَدَّرَهُ فِي السُّنَنِ الْعَامَّةِ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ، فَفَضْلُهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ عَامٌّ بِعُمُومِ رَحْمَتِهِ، بِخِلَافِ الضُّرِّ فَإِنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الْخَاصَّةِ بِكَسْبِ الْعَبْدِ، أَوِ الْعَامَّةِ فِي نِظَامِ الْخَلْقِ:

فَالْأَسْبَابُ الْخَاصَّةُ: كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي تَعْرِضُ بِتَرْكِ أَسْبَابِ الصِّحَّةِ وَالْوِقَايَةِ جَهْلًا أَوْ تَقْصِيرًا، وَفَسَادِ الْعُمْرَانِ وَسُقُوطِ الدُّوَلِ الَّذِي يَقَعُ بِتَرْكِ الْعَدْلِ، وَكَثْرَةِ الْفِسْقِ وَالظُّلْمِ.

وَالْأَسْبَابُ الْعَامَّةُ: كَالضَّرَرِ الَّذِي يَعْرِضُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَمْطَارِ، وَطُغْيَانِ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَزَلَازِلِ الْأَرْضِ وَصَوَاعِقِ السَّمَاءِ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَلَوْلَا مَغْفِرَتُهُ الْوَاسِعَةُ وَرَحْمَتُهُ الْعَامَّةُ لَأَهْلَكَ جَمِيعَ النَّاسِ بِذُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى: ٣٠]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فَاطِرُ: ٤٥](١).

---

(١) رضا/ تفسير المنار(١١/٣٩٩-٤٠٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [الْعَنْكَبُوتُ:١٧] الْآيَةَ.

لَوْ أَتَى الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَوَّلِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [الْعَنْكَبُوتُ:١٧] لَكَانَ أَوْلَى، فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَوْثَانَ مِنْ شَجَرٍ وَحَجَرٍ وَغَيْرِهَا، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً أَبَداً، وَلَوْ دَعَوْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا أَحْضَرَتْ لَهُمْ وَلَا حَبَّةَ بُرٍّ، وَلَا دَفَعَتْ عَنْهُمْ أَدْنَى مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ، فَإِذَا كَانَتْ لَا تَمْلِكُ الرِّزْقَ، وَأَنَّ الَّذِي يَمْلِكُهُ هُوَ اللهُ فَاطْلُبُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ بِالدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُرْضِيهِ، وَاشْكُرُوا لَهُ مَا يَمُدُّكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمٍ، بِالْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ، وَالْإِيمَانِ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، وَسَتُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ الْأُخْرَى، وَإِلَى حِسَابِ اللهِ وَحْدَهُ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ، تَرِدُونَ عَلَيْهِ فَيُجَازِيكُمْ عَلَى مَا عَمِلْتُمْ[١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الْأَحْقَافُ:٥] الْآيَتَيْنِ.

أَيْ: لَا يُوجَدُ أَكْثَرُ ضَلَالاً مِنَ الَّذِي يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ مَعْبُوداً بِأَيِّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الدُّعَاءُ؛ لِتَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ أَوْ دَفْعِ مَكْرُوهٍ، وَالْمَعْبُودُ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَابِدِهِ بِشَيْءٍ طَوَالَ وُجُودِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أَيْ: لَا أَحَدَ أَضَلُّ، وَأَضَلُّ: اسْمُ تَفْضِيلٍ؛ أَيْ: لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِنْ هَذَا.

وَإِذَا كَانَ الِاسْتِفْهَامُ مُرَاداً بِهِ النَّفْيُ كَانَ أَبْلَغَ مِنَ النَّفْيِ الْمُجَرَّدِ؛ لِأَنَّهُ يُحَوِّلُهُ مِنْ نَفْيٍ إِلَى تَحَدٍّ؛ أَيْ: بَيِّنْ لِي عَنْ أَحَدٍ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ[٢].

وَجَعْلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ غَايَةً لِانْتِفَاءِ الِاسْتِجَابَةِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ اسْتِغْرَاقِ مُدَّةِ بَقَاءِ الدُّنْيَا فِي الْعَجْزِ عَنِ الِاسْتِجَابَةِ[٣].

---

(١) مجد مكي/ تفسيره(٣٩٨).

(٢) ابن عثيمين/ مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٢٦٣).

(٣) ابن عاشور/ التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢).

وَإِذَا جُمِعَ النَّاسُ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَانَ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودُونَ أَعْدَاءً لِمَنْ عَبَدُوهُمْ، يَلْعَنُونَهُمْ وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ، وَكَانُوا بِعِبَادَةِ عَابِدِيهِمْ كَافِرِينَ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِعِبَادَتِهِ إِيَّاهُمْ(١).

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ إِنَّمَا عَنَى بِوَصْفِهَا بِالْغَفْلَةِ تَمْثِيلَهَا بِالْإِنْسَانِ السَّاهِي عَمَّا يُقَالُ لَهُ، إِذْ كَانَتْ لَا تَفْهَمُ مِمَّا يُقَالُ لَهَا شَيْئًا، كَمَا لَا يَفْهَمُ الْغَافِلُ عَنِ الشَّيْءِ مَا غَفَلَ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِسُوءِ رَأْيِهِمْ، وَقُبْحِ اخْتِيَارِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ لَا يَعْقِلُ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُ، وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةَ مَنْ جَمِيعُ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَمَنْ بِهِ اسْتِغَاثَتُهُمْ عِنْدَمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْحَوَائِجِ وَالْمَصَائِبِ(٢).

وَالشَّاهِدُ مِنَ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فَإِذَا كَانَ مَنْ سِوَى اللهِ لَا يَسْتَجِيبُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَسْتَغِيثَ بِهِ دُونَ اللهِ؟! فَبَطَلَ تَعَلُّقُ هَؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ بِمَعْبُودَاتِهِمْ(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النَّمْلُ: ٦٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ﴾ وَالْمُضْطَرُّ: هُوَ الَّذِي أَحْوَجَهُ مَرَضٌ أَوْ فَقْرٌ أَوْ نَازِلَةٌ مِنْ نَوَازِلِ الدَّهْرِ، إِلَى اللَّجَأِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَ(الْمُضْطَرُّ) اسْمُ مَفْعُولٍ مِنَ (الِاضْطِرَارِ) الَّذِي هُوَ افْتِعَالٌ مِنَ (الضَّرُورَةِ) وَهِيَ الْحَالَةُ الْمُحْوِجَةُ إِلَى اللَّجَأِ أَيِ الِالْتِجَاءِ وَالِاسْتِنَادِ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يُنَبِّهُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمَدْعُوُّ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، الْمَوْجُودُ عِنْدَ النَّوَازِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الْإِسْرَاءُ:٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النَّحْلُ: ٥٣]، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ﴾ أَيْ: مَنْ هُوَ الَّذِي يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ إِلَيْهِ، وَالَّذِي يَكْشِفُ ضُرَّ الْمَضْرُورِينَ سِوَاهُ سُبْحَانَهُ

(١) مجد مكي/ تفسيره(٢٠٥-٥٠٣).

(٢) الطبري/تفسيره(٢١/ ١١٦).

(٣)ابن عثيمين/مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٢٦٥).

وَتَعَالَى؟[1].

وَقَالَ ابنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِذَا اجْتَمَعَ مَعَ الدُّعَاءِ حُضُورُ الْقَلْبِ وَجَمْعِيَّتُهُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَصَادَفَ انْكِسَارًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ وَذُلًّا لَهُ وَتَضَرُّعًا وَرِقَّةً، ثُمَّ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، فَإِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ لَا يَكَادُ يُرَدُّ أَبَدًا، وَلَا سِيَّمَا إِنْ صَادَفَ الْأَدْعِيَةَ الْمَأْثُورَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا مَظِنَّةُ الْإِجَابَةِ، أَوْ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلِاسْمِ الْأَعْظَمِ.

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَكَثِيرًا مَا نَجِدُ أَدْعِيَةً دَعَا بِهَا قَوْمٌ فَاسْتُجِيبَ لَهُمْ، فَيَكُونُ قَدِ اقْتَرَنَ بِالدُّعَاءِ ضَرُورَةُ صَاحِبِهِ وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللهِ. أَوْ حَسَنَةٌ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ، جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ إِجَابَةَ دَعْوَتِهِ شُكْرًا لِحَسَنَتِهِ، أَوْ صَادَفَ الدُّعَاءُ وَقْتَ إِجَابَةٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ. فَيَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ السِّرَّ فِي لَفْظِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ، فَيَأْخُذُهُ مُجَرَّدًا عَنْ تِلْكِ الْأُمُورِ الَّتِي قَارَنَتْهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّاعِي. وَهَذَا كَمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلٌ دَوَاءً نَافِعًا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فَانْتَفَعَ بِهِ؛ فَظَنَّ غَيْرُهُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذَا الدَّوَاءِ بِمُجَرَّدِهِ، كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، كَانَ غَالِطًا، وَهَذَا مَوْضِعٌ يَغْلَطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

وَمِنْ هَذَا قَدْ يَتَّفِقُ دُعَاؤُهُ بِاضْطِرَارٍ عِنْدَ قَبْرٍ فَيُجَابُ. فَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّ السِّرَّ لِلْقَبْرِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ السِّرَّ لِلِاضْطِرَارِ وَصِدْقِ اللَّجْأِ إِلَى اللهِ، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللهِ[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أَيْ: كُلَّ مَا يَسُوءُهُ مِمَّا يَضْطَرُّ فِيهِ وَغَيْرَهُ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ: خُلَفَاءَ فِيهَا. وَذَلِكَ تَوَارُثُهُمْ سُكْنَاهَا، وَالتَّصَرُّفُ فِيهَا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ أَوْ أَرَادَ بِالْخِلَافَةِ الْمُلْكَ وَالتَّسَلُّطَ. قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ، أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا**

---

(١) ابن كثير/تفسيره(٦/٢٠٣).

(٢) انظر: ابن القيم/الجواب الكافي(ص١٢).

(٣)القاسمي/تفسيره(٧/ ٥٠٠).

يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[١].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(كَانَ رَجُلٌ)** لَمْ يُذْكَرِ اسْمُهُ هُنَا، وَوَرَدَ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ، رَأسُ الْمُنَافِقِينَ[٢].

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: **(مُنَافِقٌ)** مَصْرُوفٌ إِلَى نِفَاقِ الِاعْتِقَادِ، وَهُوَ إِبْطَانُ الْكُفْرِ، وَإِظْهَارُ الْإِيمَانِ، وَحُكْمُ هَذَا النِّفَاقِ الْكُفْرُ، وَعُقُوبَتُهُ فِي الْآخِرَةِ الدَّرْكُ الْأَسْفَلُ مِنَ النَّارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٤٥]، وَلَيْسَ نِفَاقَ الْعَمَلِ الْمَذْكُورَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ)[٣] وَحُكْمُ هَذَا النِّفَاقِ الْفِسْقُ، وَصَاحِبُهُ إِنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ فَهُوَ فِي الْمَشِيئَةِ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: **(يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ)** أَيْ: يُضَايِقُ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، فَيَسْخَرُ مِنْهُمْ، وَيَتَلَمَّسُ مَعَايِبَهُمْ، وَيَنَالُ مِنْ رَسُولِهِمْ ﷺ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِيذَاءَ الْمُؤْمِنِينَ صِفَةُ نِفَاقٍ.

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(فَقَالَ بَعْضُهُمْ)** لَمْ يُسَمَّ الْقَائِلُ، وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ[٤].

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُمْ: **(قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ)** يَعْنِي: نَسْتَجِيرُ بِهِ، وَنَحْتَمِي بِهِ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ؛ لِيَكُفَّهُ عَنَّا، وَيَدْفَعَ عَنَّا أَذَاهُ.

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: **(إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ ﷻ)** دَلِيلٌ عَلَى اعْتِبَارِ الْمَآلِ، وَسَدِّ الذَّرِيعَةِ، وَبَيَانُهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ الِاسْتِغَاثَةَ بِهِ فِي أَمْرٍ مَقْدُورٍ لَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَعْجَزُ أَنْ يَدْفَعَ سُوءَ الْمُنَافِقِ، وَيَزْجُرَهُ عَلَى ذَلِكَ؛ لَكِنَّهُ أَرَادَ أَلَّا يَتَّكِلَ أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ فَيَقُودُهُمْ إِلَى

---

(١) حسن، أخرجه: الطبراني في الكبير كما قال الهيثمي: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ ابْنِ لَهِيعَةَ، وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد(١٠/ ١٥٩). وأخرجه: أحمد/مسنده (٢٢٧٠٦) (٣٧/ ٣٨٠).

(٢) انظر: ابن أبي حاتم/تفسيره(٨/ ٢٤٤٥).

(٣) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٣) (١/ ١٦).

(٤) انظر: ابن أبي حاتم/تفسيره(٨/ ٢٤٤٥).

تَعْظِيمِهِ وَدُعَائِهِ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ فَيَقَعُوا بِذَلِكَ فِي الشِّرْكِ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى نَظَائِرُ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الْبَقَرَةُ: ١٠٤].

قِيلَ: كَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: رَاعِنَا مِنَ الرُّعُونَةِ؛ مِنْ قَوْلِكَ لِلرَّجُلِ: يَا أَرْعَنُ، وَلِلْمَرْأَةِ: يَا رَعْنَاءُ.

عَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قَوْلٌ كَانَتْ تَقُولُهُ الْيَهُودُ اسْتِهْزَاءً، فَزَجَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولوا كَقَوْلِهِمْ(١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الْأَنْعَامُ: ١٠٨].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّكَ آلِهَتَنَا أَوْ لَنَهْجُوَنَّ رَبَّكَ؛ فَنَهَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ(٢).

وَعَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ ﷺ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ)**(٣).

السَّابِعَةُ: وَفِيهِ بَيَانُ حِرْصِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى التَّوْحِيدِ وَسَلَامَةِ مُعْتَقَدِ أَصْحَابِهِ ﷺ، فَقَدْ نَأَى بِهِمْ عَنِ الْحَلَالِ مَخَافَةَ أَنْ يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى الْحَرَامِ.

الثَّامِنَةُ: فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ حَدِيثَ الْبَابِ ضَعِيفٌ لَا يُحْتَجُّ بِهِ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ لَمْ يُذْكَرْ لِلاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، بَلْ ذُكِرَ فِي ضِمْنِ غَيْرِهِ؛ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَاهُ مُوَافِقٌ لِلْمَعَانِي الْمَعْلُومَةِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ حُكْمٌ بِدَلِيلٍ مَعْلُومٍ ذُكِرَ مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْآثَارِ وَالْمَرَاسِيلِ وَأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الاعْتِضَادِ وَالْمُعَاوَنَةِ، لَا لِأَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ ذَلِكَ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ.

---

(١) الطبري/تفسيره(٢/ ٤٦٠).

(٢)أخرجه: ابن أبي حاتم/تفسيره(٤/ ١٣٦٦).

(٣) ضعيف، أخرجه: الترمذي/ سننه (٢٤٥١) (٤/ ٦٣٤).

وَلِهَذَا كَانَ الْعُلَمَاءُ مُتَّفِقِينَ عَلَى جَوَازِ الاعْتِضَادِ وَالتَّرْجِيحِ بِمَا لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْعُمْدَةَ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي تُكُلِّمَ فِي بَعْضِ رُوَاتِهَا لِسُوءِ حِفْظٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَبِآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، بَلْ بِأَقْوَالِ الْمَشَايِخِ وَالْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَالْمَنَامَاتِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلاعْتِضَادِ، فَمَا يَصْلُحُ لِلاعْتِضَادِ نَوْعٌ، وَمَا يَصْلُحُ لِلاعْتِمَادِ نَوْعٌ، وَهَذَا الْخَبَرُ مِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ[1].

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: أَنَّ عَطْفَ الدُّعَاءِ عَلَى الِاسْتِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ**﴾ [يونس: ١٠٦].

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ يَفْعَلُهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ؛ صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

الْخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

السَّادِسَةُ: كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا.

السَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنَ اللهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنْهُ.

التَّاسِعَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ.

الْعَاشِرَةُ: ذِكْرُهُ أَنَّهُ لَا أَضَلَّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنْهُ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ الْمَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كُفْرُ الْمَدْعُوِّ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ النَّاسِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ.

---

(١) ابن تيمية/ الاستغاثة في الرد على البكري (ص ١١٨).

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الْأَمْرُ الْعَجِيبُ: وَهُوَ إِقْرَارُ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللهُ، وَلِأَجْلِ هَذَا يَدْعُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: حِمَايَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ، وَالتَّأَدُّبُ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

البَابُ (١٤)

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ [الْأَعْرَافُ:١٩١-١٩٢] الْآيَةَ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَى مُتَفَرِّدٌ فِي صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الْحَدِيدُ: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يُونُسُ: ١٠٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النَّحْلُ: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فَاطِرُ:٤١].

فَاقْتَضَى تَفَرُّدُهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهَ الْمَعْبُودَ، لَكِنَّ فَرِيقاً مِنَ النَّاسِ اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، فَكَفَرُوا بِاللَّهِ، وَجَعَلَوا لَهُ أَنْدَاداً، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ، إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٩- ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الْأَحْقَافُ: ٤- ٦].

وَلَقَدْ جَاءَ هَذَا الْبَابُ فِي بَيَانِ حَالِ الْمَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ اللهِ أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ وَلَيْسُوا خَالِقِينَ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَقْهُورُونَ بِصِفَاتِ النَّقْصِ وَالْعَجْزِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ جَلْبِ

نَفعٍ أَوْ دَفعِ ضُرٍّ مَهْمَا عَلَتْ رُتْبَتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا مَلَائِكَةً مُقَرَّبِينَ، أَوْ أَنْبِيَاءَ وَمُرْسَلِينَ، إِلَّا إِذَا أَقْدَرَهُمُ اللهُ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ حَقِيقَةٌ لَا تَنْفَكُّ عَنْهُمْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ الْمَخْلُوقِينَ الْمَقْهُورِينَ بِصِفَاتِ الْعَجْزِ وَالنَّقْصِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى، يَسْأَلُونَهُمُ الْعَوْنَ وَالنُّصْرَةَ، وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا غَيْرَهُمْ يَنْصُرُونَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي عَجْزِ الْمَخْلُوقِ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ:١٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الْحَجُّ: ٧٣-٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الْفُرْقَانُ: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا، قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا، إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الْجِنُّ:٢١-٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ:١٨٨].

إِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فَحَاصِلُ كَلَامِ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ تَوْبِيخٌ وَتَعْنِيفٌ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ تَعَالَى عِبَادًا لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا كَالذَّرِّ؛ لِأَنَّ ﴿شَيْئاً﴾ نَكِرَةٌ سَبَقَهَا نَفْيٌ، فَكَانَتْ لِلْعُمُومِ، فَإِذَا كَانُوا لَا يَقْوَوْنَ عَلَى خَلْقِ أَدْنَى الْأَشْيَاءِ، فَقَدِ انْتَفَى مَا يُؤَهِّلُهُمْ أَنْ يَكُونُوا مَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْ مَعَهُ سُبْحَانَهُ، إِذْ لَا يُعْقَلُ أَمَامَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ أَنْ يُتَّخَذُوا شُرَكَاءَ مَعَ اللهِ فِي الْعِبَادَةِ، وَقَدْ تَفَرَّدَ مِنْ دُونِهِمْ فِي الْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالْمُلْكِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ نَفْيٌ صَرِيحٌ لِقُدْرَةِ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ، فَإِنَّهُمْ عَلَى عَجْزٍ وَضَعْفٍ وَقُصُورٍ، لَا يُؤَهِّلُهُمْ الْبَتَّةَ أَنْ يَأْتُوا بِالنَّفْعِ لِأَنْفُسِهِمْ وَيَدْفَعُوا الضُّرَّ عَنْهَا، فَأَنَّى لَهُمْ أَنْ يَمْنَحُوا غَيْرَهُمْ أَدْنَى الْخَيْرِ أَوْ يَدْفَعُوا عَنْهُمْ أَدْنَى الشَّرِّ، إِنَّ اتِّخَاذَ الْمَخْلُوقِ نِدًّا للهِ دَلِيلٌ عَلَى زَيْغَةِ الْقَلْبِ، وَطَمْسِ الْبَصِيرَةِ، وَتَحْقِيقِ الْكُفْرِ.

فَإِنَّ النَّصْرَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُتَّصِفُ بِصِفَاتِ الْقُوَّةِ، وَالْعِزَّةِ، وَالْجَبَرُوتِ، الْقَادِرُ عَلَى نَصْرِ عِبَادِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آلُ عِمْرَانَ:١٢٦].

وَالظَّاهِرُ: أَنَّ تَخْصِيصَ النَّصْرِ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَخَيَّلُونَ أَنْ تَقُومَ بِهَا الْأَصْنَامُ مَقْصُودٌ مِنْهُ تَنْبِيهُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى انْتِفَاءِ مَقْدِرَةِ الْأَصْنَامِ عَلَى نَفْعِهِمْ إِذَا كَانَ النَّصْرُ أَشَدَّ مَرْغُوبٍ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أَهْلَ غَارَاتٍ، وَقِتَالٍ وَثَارَاتٍ، فَالانْتِصَارُ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ لَدَيْهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾[آل عمران: ١٦٠].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فَاطِرُ: ١٣] الْآيَةُ.

هَذَا السِّيَاقُ تَقْرِيرٌ وَتَحْقِيقٌ لِمَوْضُوعِ الْبَابِ، فَإِنَّهُ بَيَانٌ لِحَالِ الْمَدْعُوِّينَ، وَحَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مَقْهُورُونَ بِالْعَجْزِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ نَفْعِ أَنْفُسِهِمْ وَلَا نَفْعِ غَيْرِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ: الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، بِسُؤَالِهِمْ جَلْبَ الْخَيْرِ وَدَفْعَ الشَّرِّ، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ وَهِيَ الْقِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الَّتِي تُحِيطُ بِالنَّوَاةِ، وَقَدْ ذَكَرَهَا اللهُ مِثَالًا لِلتَّفَاهَةِ، إِذْ لَا تَكَادُ تَنْفَعُ شَيْئًا؛ فَمَنْ كَانَ مَقْهُورًا بِالْعَجْزِ الْمُطْلَقِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى أَتْفَهِ الْأَشْيَاءِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ، بَلْ إِنَّ دُعَاءَهُ مِنَ الطَّيْشِ وَالْعَمَى.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟)، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آلُ عِمْرَانَ: ١٢٨][(١)].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(شُجَّ)** الشَّجُّ: الْجِرَاحَةُ فِي الرَّأْسِ خَاصَّةً، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ تَجَوُّزًا.

الثَّانِيَةُ: شُجَّ النبيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ بِفِعْلِ رَجُلٍ رَمَاهُ بِحَجَرٍ فِي وَجْهِهِ، فَكَسَرَ رَبَاعِيَتَهُ، وَشَجَّ

---

(١) أخرجه: البخاري معلقاً/صحيحه(٥/٩٩)، مسلم/صحيحه(١٧٩١)(٣/١٤١٧).

شَفَتَهُ؛ فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَمَاهُ عَبْدُ اللهِ بنُ قَمِئَةَ بِحَجَرٍ يَوْمَ أُحُدٍ، فَشَجَّهُ فِي وَجْهِهِ، وَكَسَرَ رَبَاعِيَتَهُ، وَقَالَ خُذْهَا وَأَنَا ابنُ قَمِئَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ: **(مَا لَكَ، أَقْمَأَكَ اللهُ)**. فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِ تَيْسَ جَبَلٍ، لَا تَيْس، فَلَمْ يَزَلْ يَنْطَحُهُ حَتَّى قَطَّعَهُ قِطْعَةً قِطْعَةً[١].

فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُقُوعِ الابْتِلَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ دَفْعَ الضُّرِّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، فَلَا يَمْلِكُونَهُ لِغَيْرِهِمْ بِالْأَوْلَى.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُمْ -أَيْ: الْأَنْبِيَاءُ- مِنَ الْبَشَرِ، تُصِيبُهُمْ مِحَنُ الدُّنْيَا، وَيَطْرَأُ عَلَى أَجْسَامِهِمْ مَا يَطْرَأُ عَلَى أَجْسَامِ الْبَشَرِ؛ لِيَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، وَلَا يُفْتَتَنُ بِمَا ظَهَرَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَيُلْبِسُ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا لَبَسَهُ عَلَى النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ"[٢].

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: **(وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:** "الرَّبَاعِيَةُ -بِفَتْحِ الرَّاءِ، وَتَخْفِيفِ الْيَاءِ: هِيَ كُلُّ سِنٍّ بَعْدَ ثَنِيَّةٍ".

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلِلْإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. **قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:** الْمُرَادُ أَنَّهَا كُسِرَتْ فَذَهَبَ مِنْهَا فَلْقَةٌ وَلَمْ تُقْلَعْ مِنْ أَصْلِهَا[٣].

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(يَوْمَ أُحُدٍ)** أُحُدٌ جَبَلٌ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ يَبْلُغُ طُولُهُ سَبْعَةَ كِيلُو مِتْرَاتٍ وَعَرْضُهُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَثَلَاثَةِ كِيلُو مِتْرٍ، وَارْتِفَاعُهُ يَصِلُ إِلَى قُرَابَةِ ٣٥٠ مِتْرًا.

وَمِمَّا وَرَدَ فِي فَضْلِهِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ، عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَسَاقَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: ثُمَّ أَقْبَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا وَادِي الْقُرَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(إِنِّي مُسْرِعٌ فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ فَلْيُسْرِعْ مَعِي، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَمْكُثْ، فَخَرَجْنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ هَذِهِ طَابَةُ وَهَذَا أُحُدٌ، وَهُوَ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)**[٤].

---

(١) ضعيف، أخرجه: الطبراني/ المعجم الكبير (٧٥٩٦) (٨/ ١٣٠).

(٢) النووي/شرحه على مسلم(١٢/١٤٨).

(٣) ابن حجر/فتح الباري(٧/٣٦٦).

(٤) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٣٩٢) (٢/١٠١١) .

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(**إِنَّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**)[1].

وَعَنْهُ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُدَاً وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ﷺ فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ: (**اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**)[2].

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: (**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ**) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رُغْمَ عُلُوِّ قَدْرِهِ، وَرَفِيعِ مَنْزِلَتِهِ، وَتَأْيِيدِهِ بِمُؤَيِّدَاتٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمُعْجِزَةُ الْخَالِدَةُ، وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ، وَالْوَسِيلَةُ ذَاتُ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَصَاحِبُ الْكَوْثَرِ فِيهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ، لَمْ يَمْلِكْ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَقَدْ خَلُصَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ، وَآذَوْهُ وأَدْمَوْهُ، فَيَلْزَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ أَعْجَزَ فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ، فَكَانَ هَذَا دَلِيلاً ظَاهِرًا عَلَى عَدَمِ اسْتِحْقَاقِهِ الْعِبَادَةَ مِنْ دُعَاءٍ أَوْ نَذْرٍ أَوْ ذَبْحٍ أَوْ اسْتِغَاثَةٍ أَوْ اسْتِعَاذَةٍ أَوْ اسْتِعَانَةٍ إِلَّا اسْتِعَانَةً أَقْدَرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا عَلَى مَا يَبْدُو مِنْ سُنَّةِ الْقَدَرِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارَاً عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ [الْأَعْرَافُ:١٨٨].

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: (**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟**) اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ الِاسْتِبْعَادُ؛ وَمَعْنَاهُ بَعِيدٌ أَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ اعْتَدَوا عَلَى نَبِيِّهِمْ حَتَّى أَدْمَوهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِمَا يُصْلِحُ دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، ويُنَبِّئُهُمْ بِمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾) دَلِيلٌ أَنَّ الْفَلَاحَ وَالطَّلَاحَ بِيَدِ اللهِ، لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ إِرَادَتُكَ وَمَشِيئَتُكَ، فَإِنْ شَاءَ اللهُ تابَ عَلَيْهِمْ وَعَفَا عَنْهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ، وَلَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، كَأَبِي سُفْيَانَ، وَخَالِدِ بنِ الْوَلِيدِ، وَعَمْرُو بنِ الْعَاصِ، وَوَحْشِيِّ بنِ حَرْبٍ ﷺ، وَإِنْ شَاءَ وَكَلَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَعَذَّبَهُمْ بِعَدْلِهِ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ.

الثَّامِنَةُ: وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عَجْزِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ تَكُونَ لَهُ إِرَادَةٌ غَالِبَةٌ، أَوْ قُدْرَةٌ قَاهِرَةٌ، يَمْلِكُ بِهَا

---

(١) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٣٩٣) (٢/١٠١١).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٦٧٥) (٥/٩).

تَأْخِيرَ فَلَاحٍ، وَتَعْجِيلَ عَذَابٍ؛ فَإِنَّ اللهَ وَحْدَهُ الْمُتَفَرِّدُ فِي ذَلِكَ؛ قَالَ تَعَالَى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ:١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [إِبْرَاهِيمُ:٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ:٢٣].

وَفِيهِ عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الفَجْرِ: (اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا وَفُلاَنًا) بَعْدَ مَا يَقُولُ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ) فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آلُ عِمْرَانِ: ١٢٨][1].

وَفِي رِوَايَةٍ: "يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ؛ فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾" [آلُ عِمْرَانِ: ١٢٨][2].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْقُنُوتِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ عِنْدَ النَّازِلَةِ كَمُدَاهَمَةِ عَدُوٍّ، أَوْ حُصُولِ بَلَاءٍ، أَوْ ظُهُورِ آيَةٍ مَخُوفَةٍ، كَزَلَازِلَ، أَوْ بَرَاكِينَ، أَوْ عَوَاصِفَ مُهْلِكَةٍ، أَوْ فَيَضَانَاتٍ مُغْرِقَةٍ وَمُدَمِّرَةٍ.

الثَّانِيَةُ: فِيهِ: وُجُوبُ تَنْزِيلِ الْحَوَائِجِ بِاللَّهِ عِنْدَ الْكُرَبِ وَالشَّدَائِدِ؛ فَإِنَّ اللهَ وَحْدَهُ الْكَافِي؛ فَعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ، بِالْغِنَى، إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ، أَوْ غِنًى عَاجِلٍ)[3].

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٠٦٩)(٥/٩٩).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٠٧٠)(٥/٩٩).

(٣) صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (١٦٤٥) (٢/ ١٢٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: (مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ)(١).

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: (اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا) وَفِي رِوَايَةٍ سَمَّاهُمْ: صَفْوَانَ بنَ أُمَيَّةَ، وَسُهَيلَ بنَ عَمْرٍو، وَالحَارِثَ بنَ هِشَامٍ، وَهُمْ رُؤَسَاءُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ جَزَاءَ أَنَّهُمْ تَسَبَّبُوا بِأَفَاعِيلَ جَرَّتْ إِلَى شَدَائِدَ وَكُرُوبٍ، وَقَدْ أَسْلَمُوا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ اسْتِعْجَالِ الْمُسْلِمِ بِالْحُكْمِ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ، فَالْهِدَايَةُ بِيَدِ اللهِ تَعَالَى.

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾) أَيْ: لَيْسَ لَكَ فِي شَأْنِهِمْ وَمَآلِ أَمْرِهِمْ، إِنْ شَاءَ اللهُ طَرَدَهُمْ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَإِنْ شَاءَ هَدَاهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ؛ فَإِنَّ أَمْرَ ذلِكَ للهِ وَحْدَهُ. وَقَدْ آلَ أَمْرُهُمْ إِلَى الْهِدَايَةِ، بَلْ انْتَهَى بَعْضُهُمْ إِلَى حَالٍ كَرِيمَةٍ وَكَانَ دَاعِيًا إِلَى اللهِ تَعَالَى مُدَافِعًا عَنْ دِينِهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي السِّيَرِ أَنَّهُ لَمَّا ارْتَدَّ النَّاسُ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَفَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو خَطِيباً فِي أَهْلِ مَكَّةَ يُثَبِّتُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَقَالَ لَهُمْ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ لَا تَكُونُوا آخِرَ مَنْ أَسْلَمَ وَأَوَّلَ مَنِ ارْتَدَّ. فَثَبَتَ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَرْتَدُّوا بِسَبَبِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي جَعَلَ اللهُ فِيهِ الْخَيْرَ، وَكَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالصَّدَقَةِ، وَخَرَجَ إِلَى الشَّامِ مُجَاهِدًا، وَمَاتَ هُنَاكَ فِي طَاعُونِ عَمْوَاسٍ، وَكَذَلِكَ صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَاتَ بِمَكَّةَ، أَمَّا الْحَارِثُ بنُ هِشَامٍ فَأَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ مِنْ فُضَلَاءِ الصَّحَابَةِ ﷺ وَخِيَارِهِمْ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ مُجَاهِدًا، وَلَمْ يَزَلْ فِي الْجِهَادِ حَتَّى مَاتَ.

الْخَامِسَةُ: وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ، فَإِنَّهُ لَا يُيْأَسُ مِنْ هِدَايَتِهِ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللهِ ﷻ، فَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ) وَكَانَ يَقُولُ: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ، وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ)(٢).

---

(١) صحيح، أخرجه: الترمذي/ سننه(٢٣٢٦)(٤/ ٥٦٣).

(٢) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده(١٧٦٣٠) (٢٩/ ١٧٨).

السَّادِسَةُ: وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ ﷻ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُحْكَمَ عَلَى الْمُعَيَّنِ مِنَ النَّاسِ بِالنَّارِ إِلاَّ إِذَا نَزَلَ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً.

وَعَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَدَمُ جَوَازِ الشَّهَادَةِ لِأَحَدٍ بِجَنَّةٍ وَلَا بِنَارٍ إِلَّا مَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَكِنَّهُمْ يَرْجُونَ لِلْمُحْسِنِينَ الْجَنَّةَ، وَيَخَافُونَ عَلَى الْمُسِيئِينَ مِنَ النَّارِ(١).

السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، وَمَا جَاءَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ سَادَةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بَلَغَهُمْ مِنَ الضُّرِّ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ الْقَدْرَ الْعَظِيمَ؛ فَقَدْ أَصَابَتْهُمُ الشِّجَاجُ وَالْجِرَاحُ، وَأُزْهِقَ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ نَيِّفٌ وَسَبْعُونَ مِنَ الْأَرْوَاحِ، وَلَمَّا كَانُوا وَهُمْ أَصْحَابُ الرُّتْبَةِ الْعَلِيَّةِ عَاجِزِينَ عَنْ أَنْ يَدْفَعُوا تِلْكَ الْمَكَارِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ أَعْجَزُ أَنْ يَمْنَحُوهَا لِغَيْرِهِمْ، فَكَانَ دُعَاؤُهُمْ وَالتَّوَسُّلُ بِهِمْ خَرَقاً وَعَمًى، وَشِرْكاً مُخْرِجاً مِنَ الْمِلَّةِ.

الثَّامِنَةُ: عَدَمُ جَوَازِ لَعْنِ الْمُعَيَّنِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا عَلَى صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ آذَوْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ؛ فَكَفَّ عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ دَعَا بِاللَّعْنِ بَعْدَ هَذَا.

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٢١٤]، قَالَ: **(يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ! لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)**(٢).

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾)** دَلِيلٌ عَلَى سُرْعَةِ الِامْتِثَالِ وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِ اللهِ ﷻ، وَتَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ دَلِيلاً عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ الْمُجَرَّدَ عَنْ الْقَرِينَةِ يُفِيدُ الْفَوْرَ لَا التَّرَاخِي.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ الْإِنْذَارُ: الْإِعْلَامُ مَعَ التَّخْوِيفِ. وَالْعَشِيرَةُ:

---

(١) الفوزان/ إعانة المستفيد(١/ ٢١٢).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٧٥٣)(٤/٦)، مسلم/صحيحه(٢٠٦)(١/١٩٢).

قَبِيلَةُ الرَّجُلِ مِنَ الْجَدِّ الرَّابِعِ فَمَا دُونَ. وَالْأَقْرَبُونَ: هُمُ الْقَرَابَةُ مِنَ الْعُصُوبَةِ وَالْأَرْحَامِ، وَتَشْمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ أَمْرٌ بِإِعْلَامِ الْعَشِيرَةِ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالْأَرْحَامِ بِمَبْعَثِهِ وَنُبُوءَتِهِ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَدْ أُفْرِدَتْ الْعَشِيرَةُ مِنَ الْقَرَابَةِ بِالْإِنْذَارِ لِغَرَضٍ بَلَاغِيٍّ، وَهُوَ أَنَّ عَشِيرَةَ الرَّجُلِ وَقَرَابَتَهُ هُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهُ، وَإِلَّا فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُمِرَ بِإِنْذَارِ النَّاسِ كَافَّةً بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾[الْفُرْقَانُ:١].

وَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ...**)[1].

الرَّابِعَةُ: عَلَى أَنَّ الْبَدْءَ بِدَعْوَةِ الْأَهْلِ وَالْقَرَابَةِ أَعْوَنُ فِي إِظْهَارِ قَنَاعَةِ النَّاسِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الدَّاعِي هُوَ أَمْرٌ حَقٌّ وَخَيْرٌ، وَلِذَلِكَ بَدَأَ بِأَهْلِهِ وَقَرَابَتِهِ، لِمَا جَرَى مِنْ عَادَةِ الْعُقَلَاءِ أَنَّهُمْ يُؤْثِرُونَ الْقَرَابَةَ بِالْخَيْرِ ثُمَّ يَمُدُّونَ بِهِ مَنْ وَرَاءَهُمْ، إِذْ لَوْ كَانَ الْعَكْسُ لَقَالَ الْمَدْعُوُّونَ: لَوْ كَانَ هَذَا مِنَ الْحَقِّ وَكَانَ الدَّاعِي صَادِقًا بِهِ لَمَا تَرَكَ أَهْلَهُ وَدَعَا النَّاسَ مِنْ وَرَائِهِمْ فَضْلاً عَنْ أَنَّ دَعْوَةَ النَّاسِ وَإِغْفَالَ الْأَهْلِ وَالْقَرَابَةِ مُخَالِفٌ لِدَلِيلِ الشَّرْعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التَّحْرِيمُ:٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[الْبَقَرَةُ:٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾[طه: ١٣٢].

عَلَى أَنَّ هَذَا حَاصِلٌ فِي أَمْرِ نَعِيمِ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾[الْبَقَرَةُ: ٢١٥].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: أَعْتَقَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ عَبْدًا لَهُ عَنْ دُبُرٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (**أَلَكَ مَالٌ غَيْرُهُ؟**) فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: (**مَنْ يَشْتَرِيهِ مِنِّي؟**) فَاشْتَرَاهُ نُعَيْمُ بنُ عَبْدِ اللهِ الْعَدَوِيُّ بِثَمَانِ مِائَةِ دِرْهَمٍ، فَجَاءَ بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: (**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ**

---

(١) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٥٢١) (١/ ٣٧٠).

عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا) يَقُولُ: فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ[1].

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي نَعِيمِ الدُّنْيَا، فَهُوَ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ أَوْلَى؛ لِشَرَفِهِ، وَعُلُوِّ شَأْنِهِ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: (**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ**) الْمَعْشَرُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، وَهُمْ فَوْقَ الْعَشَرَةِ[2]. وَقُرَيْشٌ: الْقَبِيلَةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي بُعِثَ مِنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُمْ أُسُّ الْعَرَبِ وَأَشْرَافُهُمْ، وَجِيرَانُ بَيْتِ اللهِ الْعَتِيقِ.

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: (**اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ**) أَيْ: افْتَدُوهَا مِنْ عَذَابِ اللهِ، أَوْ أَنْقِذُوهَا مِنْ عَذَابِ اللهِ بِقَبُولِكِمْ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، وَامْتِثَالِكُمْ مَا يَدُلُّكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامٍ، فَكَأَنَّ الْكُفْرَ رِقٌّ لِلْعَقْلِ وَالْبَدَنِ، لَا يُعْتَقُ إِلَّا بِالْهِدَايَةِ وَالإِسْلَامِ، وَإِلَّا يَبْقَى الْإِنْسَانُ فِي ذُلِّ الرِّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التَّوْبَةُ:١١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الصَّفُّ: ١٠- ١١].

السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**) فِيهِ بَيَانُ الشَّاهِدِ مِنْ إِيرَادِ الْحَدِيثِ فِي هَذَا الْبَابِ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مَنْ هُوَ شَرَفًا وَمَكَانَةً وَجَاهًا لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ أَهْلِهِ وَقَرَابَتِهِ شَيْئًا مِنَ الضُّرِّ إِذَا أَرَادَهُ اللهُ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللهِ، فَإِنْ عَذَّبَ فَبِعَدْلِهِ، وَإِنْ عَفَا فَبِرَحْمَتِهِ لَا نِدَّ وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا، قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾ [الْجِنُّ:٢١- ٢٢].

وَلَطَالَمَا حَرَصَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ لِأَبَوَيْهِ -وَقَدْ مَاتَا مُشْرِكَيْنِ- فَمُنِعَ، وَلَطَالَمَا حَرَصَ عَلَى إِسْلَامِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ وَيُحِيطُهُ، وَلَمْ يُفْلِحْ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي**

---

(١) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٩٩٧) (٢/ ٦٩٢).

(٢) انظر: الأزهري/ تهذيب اللغة(١/ ٢٦٠).

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الْقَصَصُ:٥٦].

وَقَوْلُهُ: (لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) فِيهِ دَعْوَةٌ إِلَى عَدَمِ اتِّكَالِ الْعَشِيرَةِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْقَرَابَةِ عَلَى صِلَتِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَقُرْبِهِمْ مِنْهُ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ بِشَيْءٍ بَلْ بِهِ تَعْظُمُ الْحُجَّةُ عَلَيهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الْأَعْرَافُ:١٨٨].

فَالْوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَعَلَّقُوا بِرَبِهِمْ سُبْحَانَهُ، وَأَنْ يَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ الَّتِي شَرَعَ، وَيُخْلِصُوا لَهُ التَّوْحِيدَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَ، فَهَذَا وَحْدَهُ هُوَ طَرِيقُ النَّجَاةِ، وَبِهِ تُحْرَسُ الْقُلُوبُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَرْتَعَ الْوَسَاوِسِ، وَبِهِ تُعْتَقُ الْأَنْفُسُ مِنَ النَّارِ، وَمِنَ الصُّوَرِ الْوَاعِظَةِ فِي هَذَا الشَّأْنِ صُورَةُ نُوحٍ ﷺ مَعَ ابْنِهِ، وَقَدْ رَآهُ يَغْرَقُ وَيُصَارِعُ الْمَوْتَ، فَرَاجَعَ رَبَّهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هُودُ:٤٥ – ٤٧].

الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: (يَا عَبَّاسُ بنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَ يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَ يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) فِيهِ إِعْذَارٌ وَحُسْنُ بَيَانٍ، وَكَمَالُ تَجَرُّدٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِقَرَابَتِهِ الْأَعَمِّ وَالْأَخَصِّ، بِأَنْ لَا يَتَّكِلَ عَلَيَّ أَحَدٌ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ أَنْ أُغْنِيَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئًا إِذَا أَرَادَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُغَالَبُ، فَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا فَلَا رَادَّ لَهُ، وَلَا نَجَاةَ لِأَحَدٍ بَعْدَ مَا سَمِعَ هَذَا الْبَيَانَ إِلَّا أَنْ يَسْعَى فِي فِكَاكِ نَفْسِهِ، وَإِدْرَاكِ عَافِيَتِهِ، وَقَبُولِ الْإِسْلَامِ، وَالتَّمَسُّكِ مَعَ الِانْقِيَادِ بِمُقْتَضَاهُ وَأَحْكَامِهِ.

عَلَى أَنَّ ذِكْرَ الْخَوَاصِّ مِنَ الْقَرَابَةِ: الْعَبَّاسِ، وَصَفِيَّةَ، وَفَاطِمَةَ بَعْدَ ذِكْرِ قُرَيْشٍ وَالْعَشِيرَةِ فِيهِ تَأْكِيدٌ لِلتَّجَرُّدِ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ لِبَشَرٍ قَطُّ، بَلْ هِيَ للهِ وَحْدَهُ؛ فَإِنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، فَإِنْ كُنْتُ عَاجِزًا عَنْ إِغْنَاءِ عَمِّي وَعَمَّتِي وَابْنَتِي إِذَا أُرِيدَ بِهِمُ الشَّرُّ؛ فَإِنِّي لِمَنْ وَرَاءَهُمْ أَشَدُّ عَجْزًا، فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ الِاتِّكَالِ عَلَى الْمَخْلُوقِ دُونَ الْخَالِقِ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَنْفَعُكُمْ بِشَيءٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ.

الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ أُحُدٍ.

الثَّالِثَةُ: قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤَمِّنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْمَدْعُو عَلَيْهِم كُفَّارٌ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ. وَمِنْهَا: التَّمْثِيلُ بِالْقَتْلَى، مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِمْ!

السَّادِسَةُ: أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فَتَابَ عَلَيْهِمْ وَآمَنُوا.

الثَّامِنَةُ: الْقُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ.

التَّاسِعَةُ: تَسْمِيَةُ الْمَدْعُو عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ.

الْعَاشِرَةُ: لَعْنُهُ الْمُعَيَّنَ فِي الْقُنُوتِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: قِصَّتُهُ ﷺ لَمَّا نَزَلَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جِدُّهُ ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَى الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ لِلْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: (لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا) حَتَّى قَالَ: (يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا). فَإِذَا صَرَّحَ ﷺ أَنَّهُ -وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ- لَا يُغْنِي شَيْئًا عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَآمَنَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ ﷺ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الْآنَ؛ تَبَيَّنَ لَهُ التَّوْحِيدُ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

البَابُ (١٥)

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سَبَأ:٢٣].

أَوْرَدَ الْمُصَنِّفُ هَذَا الْبَابَ بُرْهَانًا عَلَى أَنَّ الْمُسْتَحِقَّ لِلْعِبَادَةِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَّصِفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَأَنَّ مَنْ سِوَاهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَإِنْ كَانَ عَظِيمَ الْخَلْقِ، شَرِيفَ الْمَنْزِلَةِ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ أَقْوَى وَأَعْظَمُ خَلْقِ اللهِ كَمَا بَيَّنَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ؛ فَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ)(١).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ قَالَ: (مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مَخَارِيقُ(٢) مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ) فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: (زَجْرَةٌ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ)(٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)(٤).

---

(١)صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (٤٧٢٧) (٤/ ٢٣٢)..

(٢)جمع مخراق، وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا، أراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه. انظر: ابن الأثير/ النهاية(٢/ ٢٦).

(٣) صحيح، أخرجه: الترمذي/ سننه (٣١١٧) (٥/ ٢٩٤).

(٤) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٢٣١) (٤/ ١١٥).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ)(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التَّكْوِيرُ: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النَّجْمُ: ١٣]؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: (إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قال: «حَمَلَةُ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ مُوقِ أَحَدِهِمْ إِلَى مُؤَخِّرِ عَيْنَيْهِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ»(٣).

وَعَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «إِنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ ثَمَانِيَةٌ، أَقْدَامُهُمْ مُثَبَّتَةٌ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، رُءُوسُهُمْ قَدْ جَاوَزَتِ السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، وَقُرُونُهُمْ مِثَالُ طُولِهِمْ عَلَيْهَا الْعَرْشُ»(٤).

وَرُغْمَ هَذِهِ الْقُوَّةِ وَالْعَظَمَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الْخَلْقِ خُضُوعًا للهِ، وَأَشَدُّهُمْ خَشْيَةً مِنْهُ، وَأَحْرَصُهُمْ امْتِثَالاً لِأَمْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٦ - ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرَّعْدُ: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ١٩-٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيمُ: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ

---

(١) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده (٣٧٤٨) (٦/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٧٧) (١/ ١٥٩).

(٣) حسن، أخرجه: الأصبهاني/ العظمة (٤٧٨) (٣/ ٩٥١).

(٤) أخرجه: الأصبهاني/ العظمة (٤٧٩) (٣/ ٩٥٢).

﴿رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النَّحْلُ: ٤٩- ٥٠].

فَإِذَا كَانُوا -وَهُمْ مَنْ هُمْ قُوَّةً وَعَظَمَةً- لَمْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ شَيْئًا أَمَامَ عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُ خِيفَةً، وَأَعْظَمَ خُضُوعاً وَانْقِيَاداً، وَلَمْ يَدَّعُوا لِأَنْفُسِهِمْ أُلُوهِيَّةً وَلَا رُبُوبِيَّةً، فَلَا عُذْرَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، وَحَقِيقٌ بِمَنْ دُونَهُمْ خَلْقاً وَقُوَّةً وَعَظَمَةً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَنْ لَا يَدَّعُوا لِأَنْفُسِهِمْ شَرِكَةً فِي الْأُلُوهِيَّةِ، وَلَا فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنْ لَا يُعْبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى جَمِيعِ فِرَقِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْمَلَائِكَةَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ أَوِ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ.

وَقَدْ أَوْرَدَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جُمْلَةً مِنْ أَدِلَّةِ السَّمْعِ تُقَرِّرُ هَذَا الْمَعْنَى فَبَدَأَ بِـ:

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

ذَكَرَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تَفْسِيرِهَا قَالَ: إِنَّمَا هِيَ الْمَلَائِكَةُ إِذَا سَمِعَتْ الْوَحْيَ إِلَى جِبْرِيلَ وَبِالْأَمْرِ يُؤْمَرُ بِهِ سَمِعَتْ كَجَرِّ سِلْسِلَةِ الْحَدِيدِ عَلَى صَفْوَانَ فَتَفْزَعُ عِنْدَ ذَلِكَ؛ تَعْظِيماً وَهَيْبَةً، وَقِيلَ: خَوْفَ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَإِذَا فَزِعَ ذَلِكَ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، أَيْ: أُطِيرَ الْفَزَعُ عَنْهَا وَكُشِفَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَلِجِبْرِيلَ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فَيَقُولُ الْمَسْئُولُونَ: ﴿الْحَقَّ﴾ أَيْ: الصِّدْقَ فِي الْأَخْبَارِ، وَالْعَدْلَ فِي الْأَحْكَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الْأَنْعَامُ: ١١٥].

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أَيْ: الْعَلِيُّ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْكَبِيرُ: ذُو الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ لَا يُدَانِيهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، فَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٦٧][1].

---

(١) انظر: ابن عطية/ تفسيره (٤/ ٤١٨).

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا: بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ** - وَوَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - **فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**)[1].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: (**إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ**) مَعْنَاهُ: إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ كَمَا فِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ ﵁ الْآتِي ذِكْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: (**فِي السَّمَاءِ**) وَالسَّمَاءُ -هُنَا- وَصْفٌ لِلْعُلُوِّ، وَلَيْسَ عَلَمًا عَلَى ذَاتِ السَّمَاءِ الْمَخْلُوقَةِ؛ لِئَلَّا يَلْزَمَ مِنْهُ أَنَّ اللهَ مُحَاطٌ وَمَحْدُودٌ بِالْمَكَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: السِّينُ وَالْمِيمُ وَالْوَاوُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْعُلُوِّ. يُقَالُ سَمَوْتُ، إِذَا عَلَوْتَ. وَسَمَا بَصَرُهُ: عَلَا. وَسَمَا لِي شَخْصٌ: ارْتَفَعَ حَتَّى اسْتَثْبَتُّهُ. وَالْعَرَبُ تُسَمِّي السَّحَابَ سَمَاءً، وَالْمَطَرَ سَمَاءً. وَكُلُّ عَالٍ مُطِلٍّ سَمَاءٌ"[2].

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: (**ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ**) أَيْ: أَخَذَتْهَا الرِّعْدَةُ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَالْخَشْيَةِ، فَانْتَفَضَتْ أَبْدَانُهَا، وَتَحَرَّكَتْ، وَارْتَجَفَتْ أَجْنِحَتُهَا ذُلًّا وَانْكِسَارًا.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: (**كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ**) **قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:** قَوْلُهُ: (**كَأَنَّهُ**) أَي: الْقَوْلُ الْمَسْمُوعُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي بَدْءِ الْوَحْيِ: (**صَلْصَلَةٌ كَصَلْصَلَةِ الْجَرَسِ**) وَهُوَ:

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٧٠١)(٦/٨٠).

(٢)ابن فارس/ مقاييس اللغة (٣/ ٩٨).

صَوْتُ الْمَلَكِ بِالْوَحْيِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مَرْفُوعاً: (إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ يَسْمَعُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَلْصَلَةً كَصَلْصَلَةِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ فَيَفْزَعُونَ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ وَقَرَأَ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ... الْآيَةَ)(١).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الصَّلْصَلَةُ صَوْتُ الْحَدِيدِ إِذَا تَحَرَّكَ وَتَدَاخَلَ(٢)، وَكَأَنَّ الرِّوَايَةَ وَقَعَتْ لَهُ بِالصَّادِ وَأَرَادَ أَنَّ التَّشْبِيهَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، فَالَّذِي فِي بَدْءِ الْوَحْيِ هَذَا، وَالَّذِي هُنَا جَرُّ السِّلْسِلَةِ مِنَ الْحَدِيدِ عَلَى الصَّفْوَانِ الَّذِي هُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ يَكُونُ الصَّوْتُ النَّاشِئُ عَنْهُمَا سَوَاءً(٣).

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ) أَيْ: يُسْمِعُهُمُ اللهُ صَوْتَ الْوَحْيِ الَّذِي يُلْقِيهِ عَلَى جِبْرِيلَ ﵇، وَهُوَ الَّذِي يُوَرِّثُهُمُ الرَّجْفَةَ وَالرِّعْدَةَ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُونَ لِصَوْتِ الْوَحْيِ مِنْ فَزَعٍ، حَتَّى إِذَا زَالَ الْخَوْفُ وَسُرِّيَ عَنْهُمْ عَقِلُوا الْوَحْيَ، وَأَخْبَرُوا لِمَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ بِأَنَّهُ الْحَقُّ صِدْقًا وَعَدْلاً.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: (فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ) وَهُمُ الْجِنُّ، فَإِنَّهُمْ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ، فَيَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ لِلْوَحْيِ الَّذِي يُلْقَى فِي الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الْجِنُّ: ٨، ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصَّافَّاتُ: ٦ - ١٠].

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: (فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا) وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الْحِجْرُ: ١٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصَّافَّاتُ: ١٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الْجِنُّ: ٩].

---

(١) صحيح، أخرجه: ابن خزيمة/ التوحيد (١/ ٣٥١).

(٢) انظر: الأزهري/تهذيب اللغة(١٢/ ٧٩).

(٣) ابن حجر/ فتح الباري (٨/ ٥٣٨).

وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمُنَجِّمِينَ الَّذِينَ يَنْسِبُونَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالْإِعْطَاءَ وَالْمَنْعَ إِلَى الْكَوَاكِبِ بِحَسَبِ السُّعُودِ مِنْهَا وَالنُّحُوسِ، وَعَلَى حَسَبِ كَوْنِهَا فِي الْبُرُوجِ الْمُوَافِقَةِ، أَوِ الْمُنَافِرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ لِمَا فِي الرَّمْيِ بِهَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى تَسْخِيرِهَا لِمَا خُلِقَتْ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الْأَعْرَافُ:٥٤][(١)].

السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (**وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**) وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٢٢١ - ٢٢٣].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**لَيْسُوا بِشَيْءٍ**) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ، يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ**)[(٢)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: فَرُمِيَ بِنَجْمٍ عَظِيمٍ، فَاسْتَنَارَ قَالَ: (**مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟**) قَالَ: كُنَّا نَقُولُ يُولَدُ عَظِيمٌ، أَوْ يَمُوتُ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ وَيُخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ سَمَاءً، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، وَيَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَرْمَوْنَ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ، وَيَزِيدُونَ**)[(٣)].

---

(١) سليمان آل الشيخ/ تيسير العزيز الحميد(ص ٢٢٣).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٦٢١٣) (٨/ ٤٧).

(٣) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده (١٨٨٢) (٣/ ٣٧٢).

الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: (**فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ**) أَيْ: أَنَّ الَّذِينَ يَأْتُونَ الْكُهَّانَ يُصَدِّقُونَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِكَوْنِهِمْ يَصْدُقُونَ بَعْضَ الْأَحْيَانِ فِيمَا سَمِعُوهُ مِنَ الْوَحْيِ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ بِشَيْءٍ مَرَّةً فَوَجَدُوهُ حَقًّا، وَتِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (**المَلَائِكَةُ تَتَحَدَّثُ فِي الْعَنَانِ - وَالْعَنَانُ: الْغَمَامُ -، بِالأَمْرِ يَكُونُ فِي الأَرْضِ، فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الكَلِمَةَ، فَتَقُرُّهَا فِي أُذُنِ الكَاهِنِ كَمَا تُقَرُّ القَارُورَةُ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ**)[1].

وَفِيهِ قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، فَإِنَّهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ، وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةِ كَذْبَةٍ؟!.

وَفِيهِ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الحَقِّ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ كُلُّهُ، بَلْ لَا يَدُلُّ عَلَى إِبَاحَتِهِ كَمَا فِي الْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ وَالتَّنْجِيمِ[2].

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ: تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ رِعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ خَوفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ؛ صُعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ: جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: (الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) قَالَ: فَيَقُولُونَ: كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**)[3].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: (**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ**) هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْوَحْيِ، وَلَيْسَ كُلُّهُ عَلَى نَحْوِهَا، بَلْ هِيَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ عَدَّهَا الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ السُّهَيْلِيِّ سَبْعَ صِفَاتٍ، إِلَيْكَ بَيَانَهَا:

مِنْهَا: الرُّؤْيَةُ الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ**

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٢٨٨) (٤/ ١٢٥).

(٢) سليمان آل الشيخ / تيسير العزيز الحميد (ص ٢٢٤).

(٣) صحيح، أخرجه: ابن خزيمة/التوحيد(٢٠٦)(٣٤٨/١).

اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ)(١) ، وَكَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ لِابْنِهِ الذَبِيحِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[الصَّافَّاتُ:١٠٢].

وَعَنْ عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "رُؤْيا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ"(٢).

وَمِنْهَا: أَنْ يَنْفُثَ فِي رُوعِهِ الْكَلَام نَفْثاً؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ)(٣).

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: النَّفْثُ بِالْفَمِ شَبِيهٌ بِالنَّفْخِ، فَأَمَّا التَّفْلُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الرِّيقِ(٤)، وَمَعْنَاهُ: أَوْحَى إِلَيَّ، وَالرُّوعُ بِضَمِ الرَّاءِ أَيْ فِي خَلَدِي وَنَفْسِي.

وَقَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا هُوَ الْوَحْيُ الَّذِي يَخُصُّ الْقَلْبَ دُونَ السَّمْعِ، وَحُمِلَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الْأَنْفَالُ:١٢].

قَالَ: "وَذَلِكَ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنْ يَنْفُثَ الْمَلَكُ فِي رُوعِ الْمُؤْمِنِ الْإِطْمَاعَ فِي الظَّفَرِ بِالْعَدُوِّ، وَالتَّرْغِيبَ فِي الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ، وَالِاسْتِنْكَافَ مِنَ الْفِرَارِ، فَيَحْمِلُهُ مَا يَجِدُهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي عَلَى الثَّبَاتِ(٥).

وَمِنْهَا: أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ؛ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيْهِ ﷺ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ الْحَارِثَ بنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ)(٦).

وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ لَيَسْتَجْمِعَ قَلْبُهُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّلْصَلَةِ فَيَكُونُ أَوْعَى لِمَا يَسْمَعُ، وَأَلْقَنَ

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣) (١/٧)، مسلم/ صحيحه (١٦٠) (١/١٣٩).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (١٣٨) (١/٣٩).

(٣) صحيح، أخرجه: البغوي/ شرح السنة (٤١١٢) (١٤/٣٠٤).

(٤) الأزهري/تهذيب اللغة(١٥/٧٥).

(٥)أبو شامة/ شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى(ص٧٢).

(٦) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٢) (١/٦).

لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ.

وَمِنْهَا: أَن يتمَثَّل لَهُ الْمَلَكُ عَلَى هَيْئَةِ رَجُلٍ؛ وَقَدْ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ ﵁، وَرَآهُ كَذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﵃، فَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ الْحَارِثَ بنَ هِشَامٍ ﵁ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**... وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**) قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[1].

وَمِنْهَا: أَنْ يَظْهَرَ لَهُ الْمَلَكُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى؛ فِيهَا لَهُ سِتّمِائَةُ جَنَاحٍ، رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ كَذَلِكَ مرَّتَيْنِ عَلَى مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾ [التَّكْوِيرُ:٢٣]، ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى**﴾ [النَّجْمُ:١٣- ١٤].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَت رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، فَقَالَ: (**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**)[2].

وَمِنْهَا: أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ؛ وَذَلِكَ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: فِي الْيَقَظَةِ وَهُوَ أَعلَى دَرَجَاتِ الْوَحْيِ، كَمَا كَلَّمَهُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ قَالَ ﷺ: (**فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً**)[3].

فَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَقِيلَ: بِوَاسِطَةٍ، وَأَمَّا مُوسَى ﵇ فَقَدِ اخْتَصَّ بِتَكْلِيمِ اللهِ إِيَّاهُ بِلَا وَاسِطَةٍ.

وَالثَّانِي: أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي النَّوْمِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: رَبِّ لاَ أَدْرِي، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ**

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٢) (١/٦).

(٢) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٧٧) (١/١٥٩).

(٣) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٦٢) (١/١٤٥).

وَالمَغْرِبِ)[(١)(٢)].

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: (**أَخَذَتِ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةٌ، أَوْ قَالَ رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ**) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَجْزَاءَ هَذَا الْكَوْنِ مِنَ الْجَمَادِ وَالدَّوَابِّ أَقْدَرَهَا اللهُ عَلَى تَسْبِيحِهِ وَتَنْزِيهِهِ، وَعَقْلِ تَوْحِيدِهِ، وَأَنَّهَا تَرْضَى بِالتَّوْحِيدِ، وَتَغْضَبُ لِضِدِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الْحَشْرُ: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [فُصِّلَتْ: ١١- ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**﴾ [مَرْيَمُ: ٨٨ - ٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [الْبَقَرَةُ: ٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾ [الرَّحْمَنُ: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**﴾ [الْحَجُّ:١٨].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقَلَّ المَاءُ، فَقَالَ: (**اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ**) فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: (**حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ**) فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ[(٣)].

---

(١) صحيح، أخرجه: الترمذي/ سننه (٣٢٣٤) (٥/ ٣٦٧).

(٢) أبو شامة/ شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى (ص ٧٦).

(٣) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٥٧٩) (٤/ ١٩٤).

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَحَنَّ الْجِذْعُ حَتَّى أَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاحْتَضَنَهُ فَسَكَنَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ، لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)**(١).

وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **(مَا مِنْ مُلَبٍّ يُلَبِّي، إِلَّا لَبَّى، مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ مَدَرٍ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ، مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا)**(٢).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ)**(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ)**(٤).

وَعَنْ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ)**(٥).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤْذَنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبَّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ)**(٦).

وَعَنِ ابنِ شِمَاسَةَ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ بنَ حُدَيْجٍ مَرَّ عَلَى أَبِي ذَرٍّ، وَهُوَ قَائِمٌ عِنْدَ فَرَسٍ لَهُ فَسَأَلَهُ: مَا تُعَالِجُ مِنْ فَرَسِكَ هَذَا؟ فَقَالَ: **"إِنِّي أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْفَرَسَ قَدِ اسْتُجِيبَ لَهُ دَعْوَتُهُ"**. قَالَ: وَمَا دُعَاءُ

---

(١) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده (٢٤٠٠)(٤/ ٢٢٧).

(٢) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/سننه(٢٩٢١)(٢/ ٩٧٤).

(٣) حسن صحيح، أخرجه الترمذي/سننه(٢٦٨٥)(٤/ ٣٤٧).

(٤) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(١٠٤٦)(١/ ٢٧٤).

(٥) صحيح، أخرجه: أبو داود/سننه(٥١٠١)(٤/ ٣٢٧).

(٦) صحيح موقوفاً، أخرجه: أحمد/مسنده(٢١٤٩٧)(٣٥/٣٩٢).

الْبَهِيمَةِ مِنَ الْبَهَائِمِ؟ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ فَرَسٍ إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو كُلَّ سَحَرٍ فَيَقُولُ: اللهُمَّ أَنْتَ خَوَّلْتَنِي عَبْدًا مِنْ عِبَادِكَ، وَجَعَلْتَ رِزْقِي بِيَدِهِ، فَاجْعَلْنِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ"(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ)(٢).

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: (فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ) قَالَ عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "اسْمُ جِبْرِيلَ عليه السلام عَبْدُ اللهِ، وَاسْمُ مِيكَائِيلَ عليه السلام عُبَيْدُ اللهِ"(٣).

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ أَطْوَعُ الْمَلَائِكَةِ للهِ تَعَالَى، وَكُلُّهُمْ طَائِعٌ مُنْقَادٌ لِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ، وَجِبْرِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ أَثْنَى عَلَيْهِ رَبُّهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التَّكْوِيرُ: ١٩– ٢١].

وَهُوَ عَظِيمُ الْخَلْقِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ»(٤)، وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِالْوَحْيِ.

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ عليه السلام: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ...) فِيهِ حِرْصُ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْعِلْمِ بِأَمْرِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ أَرْضَى للهِ تَعَالَى، وَقَدْ خُلِقُوا ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيمُ: ٦].

---

(١) صحيح، أخرجه: أحمد/مسنده(٢١٤٤٢)(٣٤٧/٣٥).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٠١٩)(٤/ ٦٢).

(٣) حسن، أخرجه: أحمد/ مسنده (٢٠١٧٦)(٣٣/ ٣٤٥).

(٤) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده (٣٧٤٨)(٦/ ٢٩٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثَّانِيَةُ: مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشِّرْكِ، خُصُوصاً مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّرْكِ مِنَ الْقَلْبِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿**قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[سَبأ: ٢٣].

الرَّابِعَةُ: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبُهُمْ بِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: (قَالَ كَذَا وَكَذَا).

السَّادِسَةُ: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ.

التَّاسِعَةُ: ارْتِجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللهِ تَعَالَى.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: سَبَبُ إِرْسَالِ الشُّهُبِ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ، وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةِ كَذْبَةٍ؟!

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: كَوْنُهُمْ يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

الْعِشْرُونَ: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافاً لِلْمُعَطِّلَةِ.

الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ خَوْفاً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ للهِ سُجَّداً.

الْبَابُ (١٦)

الشَّفَاعَةُ

الشَّفَاعَةُ فِي اللُّغَةِ: مَصْدَرُ شَفَعَ، يَشْفَعُ شَفَاعَةً، وَالشَفْعُ: مَا كَانَ مِنَ الْعَدَدِ أَزْوَاجاً.

وَالشَفْعُ: خِلَافُ الْوِتْرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الْفَجْرُ: ٣]. وَالشَّفَاعَةُ: هِيَ الْمُطَالَبَةُ بِوَسِيلَةٍ أَوْ ذِمَامٍ[١]، وَالذِّمَامُ: الْعَهْدُ.

وَتَأْتِي الشَّفَاعَةُ بِمَعْنَى الْإِعَانَةِ، يُقَالُ: شَفَعَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ إِذَا جَاءَ ثَانِيَهُ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَهُ وَمُعِينًا لَهُ[٢].

وَفِي الِاصْطِلَاحِ: عَرَّفَهَا الرَّاغِبُ الْأَصْبَهَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بِأَنَّهَا الِانْضِمَامُ إِلَى آخَرَ نَاصِراً لَهُ سَائِلاً عَنْهُ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي انْضِمَامِ مَنْ هُوَ أَعَلَى حُرْمَةً وَمَرْتَبَةً إِلَى مَنْ هُوَ أَدْنَى[٣].

وَعَرَّفَهَا ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: إِعَانَةٌ عَلَى خَيْرٍ يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، مِنْ نَفْعِ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّفْعَ، وَدَفْعِ الضُّرِّ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّ دَفْعَ الضَّرَرِ عَنْهُ[٤].

وَالشَّفَاعَةُ تَكُونُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، وَتَكُونُ أَيْضاً فِي فِعْلِ الشَّرِّ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها، ومَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها﴾[النِّسَاءُ: ٨٥].

أَمَّا الشَّفَاعَةُ فِي الْخَيْرِ؛ كَشَفَاعَةِ ذِي سُلْطَانٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ ثَرَاءٍ لِمَظْلُومٍ أَوْ ضَعِيفٍ أَوْ ذِي حَاجَةٍ عِنْدَ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ الظُّلْمَ أَوْ يَدْفَعَ الْخَوْفَ أَوْ يَكْفِيَ الْفَقِيرَ، وَهِيَ مِنْ أَنْفَسِ أَعْمَالِ الْبِرِّ؛ فَعَنْ أَبِي مُوسَى ﵁ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: **(اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ)**[٥].

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ ﵁ قَالَ: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا فَإِنِّي لَأُرِيدُ الْأَمْرَ، فَأُؤَخِّرُهُ كَيْمَا تَشْفَعُوا فَتُؤْجَرُوا، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **(اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا)**[٦].

---

(١) انظر: ابن فارس/ مقاييس اللغة (٣/ ٢٠١)، ابن منظور/ لسان العرب (٨/ ١٨).

(٢) ابن فارس/ مقاييس اللغة (٣/ ٢٠١).

(٣) الأصبهاني/ المفردات (ص ٣٨٦).

(٤) ابن تيمية/ مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥).

(٥) أخرجه: البخاري/ صحيحه (١٤٣٢) (٢/ ١١٣).

(٦)صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (٥١٣٢) (٤/ ٣٣٤).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ ﷺ قَالَ: شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَجَاءَتْهُ وُفُودُ هَوَازِنَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا أَصْلٌ وَعَشِيرَةٌ، فَمُنَّ عَلَيْنَا، مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِنَا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، فَقَالَ: **(اخْتَارُوا بَيْنَ نِسَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ)**، قَالُوا: خَيَّرْتَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَأَمْوَالِنَا، نَخْتَارُ أَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: **(أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَهُوَ لَكُمْ، فَإِذَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ، فَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نِسَائِنَا وَأَبْنَائِنَا)** قَالَ: فَفَعَلُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَهُوَ لَكُمْ)**، وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: وَمَا كَانَ لَنَا، فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ عُيَيْنَةُ بنُ بَدْرٍ: أَمَّا مَا كَانَ لِي ولِبَنِي فَزَارَةَ، فَلَا، وَقَالَ الْأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ: أَمَّا أَنَا وَبَنُو تَمِيمٍ، فَلَا، وَقَالَ عَبَّاسُ بنُ مِرْدَاسٍ: أَمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ، فَلَا، فَقَالَتِ الْحَيَّانِ(١): كَذَبْتَ، بَلْ هُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ، وَأَبْنَاءَهُمْ، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفَيْءِ، فَلَهُ عَلَيْنَا سِتَّةُ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يُفِيئُهُ اللَّهُ عَلَيْنَا)**(٢).

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ فِي الشَّرِّ كَشَفَاعَةِ ذِي سُلْطَانٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ ثَرَاءٍ فِي نُصْرَةِ ظَالِمٍ أَوْ مَنْعِ حَقٍّ أَوْ إِسْقَاطِ عُقُوبَةٍ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ مِنْ أَقْبَحِ أَعْمَالِ الشَّرِّ، وَلَقَدْ أَنْكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حِبِّهِ أُسَامَةَ ﷺ لَمَّا جَاءَهُ يَشْفَعُ عِنْدَهُ فِي إِسْقَاطِ حَدِّ السَّرِقَةِ عَنِ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ؛ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)**(٣).

وَالشَّفَاعَةُ فِي هَذَا الْبَابِ مَقْصُودَةٌ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ.

---

(١) الحيان في الحديث: هما: بنو تميم وبنو سليم؛ فالمراد: أن كل حيٍّ منهما قال لرئيسهم: كذبت، بل هو رسول الله ﷺ.

(٢)حسن، أخرجه: أحمد/ مسنده (٦٧٢٩) (١١/ ٣٣٩).

(٣) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٤٧٥) (٤/ ١٧٥).

وَلَمَّا كَانَ الْمُشْرِكُونَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ إِنَّمَا وَقَعُوا فِي الشِّرْكِ لِتَعَلُّقِهِمْ بِأَذْيَالِ الشَّفَاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يُونُس:١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَرُ:٣].

فَقَطَعَ اللهُ أَطْمَاعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهَا مِنْ غَيْرِهِ شِرْكٌ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِلْخَلْقِ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ أَوْ شَفِيعٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السَّجْدَةُ:٤].

وَأَرَادَ الْمُصَنِّفُ فِي هَذَا الْبَابِ إِقَامَةَ الْحُجَجِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ هُوَ عَيْنُ الشِّرْكِ، وَأَنَّ الشَّفَاعَةَ الَّتِي يَظُنُّهَا مَنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ لِيَشْفَعَ لَهُ، كَمَا يَشْفَعُ الْوَزِيرُ عِنْدَ الْمَلِكِ مَثَلاً، مُنْتَفِيَةٌ دُنْيَا وَأُخْرَى، وَإِنَّمَا اللهُ هُوَ الَّذِي يَأْذَنُ لِلشَّافِعِ ابْتِدَاءً، وَلَيْسَ الشَّافِعُ يَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بِإِرَادَةٍ مُنْفَرِدَةٍ عَنْ إِرَادَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ كَمَا ظَنَّهُ أَعْدَاءُ اللهِ[1].

وَلِذَا فَإِنَّ اتِّخَاذَ الشُّفَعَاءِ وَالْأَنْدَادِ مِنْ دُونِ اللهِ هَضْمٌ لِحَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَنَقُّصٌ لِعَظَمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَقَدْ جَعَلُوا الْمَخْلُوقَ ذَا إِرَادَةٍ وَمَشِيئَةٍ تُؤَثِّرُ فِي إِرَادَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ ﷻ بِأَحَدٍ عَذَابًا فَاسْتَشْفَعَ بِالْأَنْدَادِ اعْتِقَادًا مِنْهُ أَنَّ الشَّفِيعَ يَمْنَعُ الْعَذَابَ، وَيَرُدُّ مَشِيئَةَ اللهِ وَإِرَادَتَهُ، وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ عَلَى خِلَافِ هَذَا الظَّنِّ السَّيِّءِ، وَالْفَهْمِ الْجَاهِلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التَّكْوِيرُ: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الْإِنْسَانُ: ٣٠]

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشِئْتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهَ عَدْلًا بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)[2].

وَلَا يَخْفَى فَسَادُ هَذَا الْمُعْتَقَدِ وَسُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَلِذَا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى تَوَعَّدَ هَؤُلَاءِ بِالْعَذَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الْفَتْحُ: ٦]،

---

(١) سليمان آل الشيخ/ تيسير العزيز الحميد (ص ٢٢٧)

(٢) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده (١٨٣٩) (٣/ ٣٣٩).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٣].

عَلَى أَنَّ هَذَا مُنَافٍ لِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَالشَّفَاعَةُ لَيْسَتْ بِمَشِيئَةِ أَحَدٍ وَلَا إِرَادَتِهِ مَهْمَا كَانَ شَرِيفَ الْقَدْرِ عَالِيَ الْمَنْزِلَةِ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى لِلشَّافِعِ وَالْمَشْفُوعِ لَهُ، وَفِي تَقْرِيرِ هَذَا أَوْرَدَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ جُمْلَةً مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَقَالَ:

وَقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ...﴾ [الْأَنْعَامُ:٥١].

وَيَحْسُنُ أَنْ نَأْتِيَ بِالْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٥٠].

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَهُوَ مَنْ هُوَ شَرَفًا وَقَدْرًا أَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ صِفَاتِهِ كَبَشَرٍ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ خَزَائِنَ اللهِ، وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بَلْ هُوَ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ اللهُ، اصْطَفَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ؛ لِيَكُونَ نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ إِلَى الْخَلْقِ، وَلَا يَمْلِكُ فَوْقَ مَا أَعْطَاهُ اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا مَا أَعْلَمَهُ اللهُ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَحيًا مَتْلُوًّا وَغَيْرَ مَتْلُوٍّ، وَأَمَرَهُ بِاتِّبَاعِهِ، فَأَحْسَنَ ذلِكَ وَأَتْقَنَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَيْهِ، وَيَتَمَسَّكُوا بِوَحْيِهِ، وَالنَّاسُ أَمَامَ هَذَا بَصِيرٌ وَأَعْمَى، وَعَالِمٌ وَجَاهِلٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَبِيرٌ، فَهَلَّا تَدَبَّرْتُمْ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، وَعَقَلْتُمْ مَعْنَاهَا، وَأَنْزَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ مَنَازِلَهُمْ مِنْ غَيْرِ تَضْيِيعٍ لِحَقِّهِمْ، وَلَا تَهْوِينٍ لِقَدْرِهِمْ، وَمِنْ غَيْرِ مُبَالَغَةٍ فِيهِمْ.

ثُمَّ أَمَرَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُنذِرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ فَهُمْ مُتَيَقِّنُونَ لِلِانْتِقَالِ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ، إِلَى دَارِ الْقَرَارِ، فَلِذَلِكَ يَسْتَصْحِبُونَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَدَعُونَ مَا يَضُرُّهُمْ. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ: مِنْ دُونِ اللهِ ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيْ: مَنْ يَتَوَلَى أَمْرَهُمْ فَيُحَصِّلُ لَهُمُ الْمَطْلُوبَ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمُ الْمَحْذُورَ، وَلَا مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ، لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ اللهَ، بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، فَإِنَّ الْإِنْذَارَ مُوجِبٌ لِذَلِكَ، وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزُّمَرُ: ٤٤].

وَيَحْسُنُ أَنْ نَأْتِيَ بِمَا قَبْلَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ، قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٤٣- ٤٤].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ وَيَعْبُدُهُمْ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ - مُبَيِّنًا جَهْلَهُمْ، وَأَنَّهَم لَا تَسْتَحِقُ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ-: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾ أَيْ: مَنِ اتَّخَذْتُمْ مِنَ الشُّفَعَاءِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أَيْ: لَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ، بَلْ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ، يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُمْدَحُوا بِهِ؛ لِأَنَّهَا جَمَادَاتٌ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْجَارٍ وَصُوَرٍ وَأَمْوَاتٍ، فَهَلْ يُقَالُ: إِنَّ لِمَنِ اتَّخَذَهَا عَقْلًا؟ أَمْ هُوَ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَعْظَمِهِمْ ظُلْمًا؟

﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ، وَكُلُّ شَفِيعٍ فَهُوَ يَخَافُهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ عَبْدِهِ، أَذِنَ لِلشَّفِيعِ الْكَرِيمِ عِنْدَهُ أَنْ يَشْفَعَ، رَحْمَةً بِالِاثْنَيْنِ، ثُمَّ قَرَّرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: جَمِيعُ مَا فِيهِمَا مِنَ الذَّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ. فَالْوَاجِبُ أَنْ تُطْلَبَ الشَّفَاعَةُ مِمَّنْ يَمْلِكُهَا، وَتُخْلَصَ لَهُ الْعِبَادَةُ. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فَيُجَازِي الْمُخْلِصَ لَهُ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَمَنْ أَشْرَكَ بِهِ بِالْعَذَابِ الْوَبِيلِ[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[الْبَقَرَةُ: ٢٥٥].

إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ أَحَدٌ يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ وَعِبَادِهِ الْمُكَلَّفِينَ، إِنْ شَاءَ قَبَضَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ بَسَطَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَعَزَّهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَذَلَّهُمْ، وَإِنْ شَاءَ هَدَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَضَلَّهُمْ، لَا يُسْأَلُ عَمَّ يَفْعَلُ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَلَوْ شَفَعَ لَا يُشَفَّعُ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْرِضَ

(١) السعدي / تفسيره (ص ٧٢٦).

شَفَاعَتَهُ عَلَى إِرَادَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ قَاهِرٌ فَوْقَ الْعِبَادِ، عَزِيزٌ لَا يُغَالَبُ مِنْ أَحَدٍ، إِرَادَتُهُ وَمَشِيئَتُهُ فَوْقَ كُلِّ إِرَادَةٍ وَمَشِيئَةٍ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَخْتَارُ الشَّافِعَ وَالْمَشْفُوعَ لَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وَعَلَى ضَوْءِ ذَلِكَ تَتَجَلَّى حَقِيقَةٌ لَا مِرْيَةَ فِيهَا، وَهِيَ: أَنَّ طَلَبَ الشَّفَاعَةِ مِنْ دُونِ اللهِ شِرْكٌ؛ لِأَنَّهَا تُطْلَبُ مِنْ عَاجِزٍ مَقْهُورٍ بِصِفَاتِ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، فَأَنَّى لَهُ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي أَمْرِ اللهِ، وَقَدَرِهِ الَّذِي شَاءَ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ وَيَرْضَى، عَلَى أَنَّ الَّذِي يَطْلُبُ الشَّفَاعَةَ مِنْ غَيْرِ اللهِ قَدْ جَعَلَ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ مِنَ الْخَلْقِ نِدًّا للهِ، إِذْ لَمْ يَطْلُبْهُ بِذَلِكَ إِلَّا عَنْ مُعْتَقِدٍ أَنَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي مَشِيئَةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ، وَأَنْ يُحَصِّلَ لِلشَّافِعِ مَا طَلَبَ مِنْ دَفْعِ الضُّرِّ أَوْ جَلْبِ النَّفْعِ، وَهَذَا مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا امْتِرَاءٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النَّجْمُ: ٢٦].

ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ فِي السَّمَاوَاتِ، وَالْغَرَضُ مِنْ ذِكْرِهِمْ تَنْبِيهُ الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ إِلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ مَنْ هُمْ عَظَمَةً وَقُوَّةً وَقُدْرَةً فِي الْخَلْقِ، وَهِدَايَةً وَاسْتِقَامَةً فِي الْخُلُقِ وَالسُّلُوكِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ، وَلَوْ شَفَعُوا لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، فَإِنَّ شَفَاعَتَهُمْ لَا تَكَادُ تُغْنِي وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا إِذَا أَذِنَ اللهُ تَعَالَى وَشَاءَ وَرَضِيَ لِبَعْضِهِمْ بِالشَّفَاعَةِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فِي أَعْظَمِ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَقْوَاهُمْ وَأَوْفَرِهِمْ هِدَايَةً وَاسْتِقَامَةً، فَإِنَّ مَنْ دُونَهُمْ مِنَ الثَّقَلَيْنِ أَشَدُّ عَجْزًا وَفَشَلاً فِي تَحْصِيلِ الشَّفَاعَةِ لِأَيِّ أَحَدٍ.

وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا إِبْطَالٌ لِدَعْوَى الْمُشْرِكِينَ وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ أَحَدًا يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ مُنْفَرِدًا دُونَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى لَهُ وَيَرْضَى، وَأَنَّ الْحَقَّ لِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ الشَّفَاعَةَ أَنْ يَطْلُبَهَا مِمَّنْ يَمْلِكُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ فِي ذلِكَ، وَأَنَّ طَلَبَهَا مِمَّنْ سِوَاهُ شِرْكٌ وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا مُرْسَلاً، أَوْ مَلَكًا مُقَرَّبًا، فَضْلاً عَمَّنْ هُوَ دُونَهُمْ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَذِنَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالشَّفَاعَةِ، أَفَلَا يَجُوزُ أَنْ نَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِهَا؟

الْجَوَابُ: لَا يَجُوزُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِأَمْرِهِ وَلَا بِإِرَادَتِهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ،

وَالسَّبِيلُ إِلَى نَيْلِ شَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَحْصُلُ بِإِحْدَى وَسِيلَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: الدُّعَاءُ للهِ تَعَالَى أَنْ يُكْرِمَ سَائِلَهُ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ شَفِّعْ فِينَا نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَالثَّانِيَةُ: التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِبَعْضِ الطَّاعَاتِ الَّتِي جَاءَ الدَّلِيلُ مُرْشِدًا أَنَّهَا وَسَائِطُ فِي نَيْلِ شَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ:

أَوَّلًا: تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ مِنَ الشِّرْكِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي، فَهِيَ نَائِلَةٌ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ، لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا)**(١).

ثَانِيًا: التَّرْدِيدُ مَعَ الْمُؤَذِّنِ فِيمَا يَقُولُ، وَالدُّعَاءُ للهِ تَعَالَى أَنْ يُعْطِيَ نَبِيَّهُ ﷺ الْوَسِيلَةَ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **(إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً؛ صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ)**(٢).

ثَالِثًا: صَبْرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى لَأْوَائِهَا؛ فَعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لَا يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبْدَلَ اللهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلَا يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا، أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**(٣).

رَابِعًا: كَثْرَةُ نَافِلَةِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ؛ فَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: **(سَلْ)** فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: **(أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ)** قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: **(فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ)**(٤).

---

(١) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/ سننه (٤٣٠٧) (٢/ ١٤٤٠).

(٢) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٣٨٤) (١/ ٢٨٨).

(٣) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٣٦٣) (٢/ ٩٩٢).

(٤) أخرجه: مسلم/صحيحه(٤٨٩)(١/٣٥٣).

وَعَنْ رَبِيعَةَ بنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(سَلْنِي أُعْطِكَ)**، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْظِرْنِي أَنْظُرْ فِي أَمْرِي، قَالَ: **(فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ)**، قَالَ: فَنَظَرْتُ فَقُلْتُ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا يَنْقَطِعُ فَلَا أَرَى شَيْئًا خَيْرًا مِنْ شَيْءٍ آخُذُهُ لِنَفْسِي لِآخِرَتِي، فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **(مَا حَاجَتُكَ؟)**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْفَعْ لِي إِلَى رَبِّكَ ﷻ، فَلْيُعْتِقْنِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَ: **(مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا؟)**، فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنِّي نَظَرْتُ فِي أَمْرِي فَرَأَيْتُ أَنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ مِنْ أَهْلِهَا، فَأَحْبَبْتُ أَنْ آخُذَ لِآخِرَتِي، قَالَ: **(فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ)**(١).

خَامِسًا: كَثْرَةُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(مَنْ صَلَّى عَلَيَّ حِينَ يُصْبِحُ عَشْرًا وَحِينَ يُمْسِي عَشْرًا أَدْرَكَتْهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**(٢).

سَادِسًا: الْإِخْلَاصُ فِي قَوْلِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا)؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ)**(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سَبَأ: ٢٢] الْآيَتَيْنِ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَيْ: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، مُلْزِمًا لَهُمْ بِعَجْزِهَا، وَمُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ عِبَادَتِهَا: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيْ: زَعَمْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، إِنْ كَانَ دُعَاؤُكُمْ يَنْفَعُ، فَإِنَّهُمْ قَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهِمْ أَسْبَابُ الْعَجْزِ، وَعَدَمُ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَإِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ أَدْنَى مِلْكٍ، فَـ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِقْلَالِ، وَلَا عَلَى وَجْهِ الِاشْتِرَاكِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أَيْ: لِتِلْكَ الْآلِهَةِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴿فِيهِمَا﴾ أَيْ: فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿مِنْ

---

(١) حسن، أخرجه: أحمد/ مسنده (١٦٥٧٨) (٢٧/ ١١٧).

(٢)صحيح، أخرجه: ابن أبي عاصم/ الصلاة على النبي (٦١)(٤٨).

(٣) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٩٩) (١/ ٣١).

﴿شِرْكٍ﴾ أيْ: لَا شِرْكٍ قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، فَلَيْسَ لَهُمْ مُلْكٌ، وَلَا شِرْكَةُ مُلْكٍ.

بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: وَمَعَ ذَلِك، فَقَدْ يَكُونُونَ أَعْوَانًا لِلْمَالِكِ، وَوُزَرَاءَ لَهُ، فَدُعَاؤُهُمْ يَكُونُ نَافِعًا؛ لِأَنَّهُمْ -بِسَبَبِ حَاجَةِ الْمَلِكِ إِلَيْهِمْ- يَقْضُونَ حَوَائِجَ مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ، فَنَفَى تَعَالَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ فَقَالَ: ﴿وَمَا لَهُ﴾ أَيْ: للهِ تَعَالَى الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿مِنْهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أَيْ: مُعَاوِنٍ وَوَزِيرٍ يُسَاعِدُهُ عَلَى الْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ.

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَنَفَاهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فَهَذِهِ أَنْوَاعُ التَّعَلُّقَاتِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الْمُشْرِكُونَ بِأَنْدَادِهِمْ، وَأَوْثَانِهِمْ، مِنَ الْبَشَرِ، وَالشَّجَرِ، وَغَيْرِهِمْ، قَطَعَهَا اللهُ وَبَيَّنَ بُطْلَانَهَا، تَبْيِينًا حَاسِمًا لِمَوَادِّ الشِّرْكِ، قَاطِعًا لِأُصُولِهِ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكَ إِنَّمَا يَدْعُو وَيَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ، لِمَا يَرْجُو مِنْهُ مِنَ النَّفْعِ، فَهَذَا الرَّجَاءُ، هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ لَهُ الشِّرْكَ، فَإِذَا كَانَ مَنْ يَدْعُوهُ غَيْرَ اللهِ، لَا مَالِكًا لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَلَا شَرِيكًا لِلْمَالِكِ، وَلَا عَوْنًا وَظَهِيرًا لِلْمَالِكِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ بِدُونِ إِذْنِ الْمَالِكِ، كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ، وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ، ضَلَالاً فِي الْعَقْلِ، بَاطِلَةً فِي الشَّرْعِ.

بَلْ يَنْعَكِسُ عَلَى الْمُشْرِكِ مَطْلُوبُه وَمَقْصُودُهُ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ مِنْهَا النَّفْعَ، فَبَيَّنَ اللهُ بُطْلَانَهُ وَعَدَمَهُ، وَبَيَّنَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ ضَرَرَهُ عَلَى عَابِدِيهِ، وَأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، وَالْعَجَبُ، أَنَّ الْمُشْرِكَ اسْتَكْبَرَ عَنْ الِانْقِيَادِ لِلرُّسُلِ، بِزَعْمِهِ أَنَّهُمْ بَشَرٌ، وَرَضِيَ أَنْ يَعْبُدَ وَيَدْعُوَ الشَّجَرَ، وَالْحَجَرَ، اسْتَكْبَرَ عَنْ الْإِخْلَاصِ لِلْمَلِكِ الرَّحْمَنِ الدَّيَّانِ، وَرَضِيَ بِعِبَادَةِ مَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ، طَاعَةً لِأَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ وَهُوَ الشَّيْطَانُ(١).

وَقَالَ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمُعِينِ حَفِظَهُ اللهُ: "قُلْ -يَا رَسُولَ اللهِ وَ يَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ- فِي حِوَارٍ دَعَوِيٍّ مَعَ الْمُشْرِكِينَ: اسْأَلُوا لِتَحْقِيقِ مَنَافِعَ لَكُمْ، أَوْ كَشْفِ ضُرٍّ عَنْكُمْ، الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ آلِهَةً تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ غَيْرِ اللهِ، وَهُمْ مَنْ دُونَهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، خَاضِعُونَ لِتَصَارِيفِهِ، فَجَعَلْتُمُوهُمْ كَذِبًا وَزُورًا وَافْتِرَاءً شُرَكَاءَ للهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَفِي بَعْضِ رُبُوبِيَّتِهِ، إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِقْدَارَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لِآلِهَتِكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ مُشَارَكَةٍ لِلرَّبِّ الْخَالِقِ الْمَالِكِ فِي خَلْقِ شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَا فِي امْتِلَاكِ شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَا فِي التَّصَرُّفِ بِشَيْءٍ

---

(١) السعدي/ تفسيره (ص ٦٧٨).

مِنْهُمَا، وَلَيْسَ للهِ سُبْحَانَهُ مِنَ آلِهَتِكُمْ الْبَاطِلَةِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ مُعِينٍ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ تَصَارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ اللهُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَالْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْمُسْتَأْهِلِينَ لِمَقَامِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ، فَلَا تَطْمَعُوا -أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ- بِأَنْ تَشْفَعَ لَكُمْ آلِهَتُكُمُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَمِنْ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ: أَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَسَمِعَهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ، أَصَابَ الْمَلَائِكَةَ غَشْيَةٌ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِهِ، حَتَّى إِذَا كُشِفَ الْفَزَعُ، وَأُزِيلَ عَنْ قُلُوبِهِمْ. قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: قَالَ الْقَوْلَ الْحَقَّ الثَّابِتَ وَهُوَ -وَحْدَهُ- ذُو الْعُلُوِّ وَالْكِبْرِيَاءِ.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سَبَأ: ٢٤].

قُلْ -يَا أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى اللهِ- لِلْمُشْرِكِينَ: مَنْ يَرْزُقُكُمْ الْمَطَرَ وَالنَّبَاتَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قُلْ لَهُمْ -عَلَى جِهَةِ الْإِلْزَامِ وَالْإِنْصَافِ فِي الْحِجَاجِ-: إِنَّ رَازِقَكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هُوَ اللهُ، وَلَيْسَ لِآلِهَتِكُمْ -أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ- تَأْثِيرٌ فِي شَيْءٍ مِنْ تَصَارِيفِ الْكَوْنِ وَأَحْدَاثِهِ كُلِّهَا، وَمِنْهَا: أَرْزَاقُ الْعِبَادِ وَمَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ، بَلْ نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ فِي مُعْتَقَدَاتِنَا وَأَفْكَارِنَا عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ، فَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ عَلَى هُدًى، وَأَنْتُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونُوا أَنْتُم عَلَى هُدًى، وَنَحْنُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَقَدِّمُوا مَا لَدَيْكُمْ مِنْ أَدِلَّةٍ لِإِثْبَاتِ مَا تَدَّعُونَ، وَنَحْنُ نُقَدِّمُ مَا لَدَيْنَا مِنْ بَرَاهِينَ لِإِثْبَاتِ مَا نُؤْمِنُ بِهِ. وَفِي هَذَا التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيِّ إِلْزَامٌ لِلدَّاعِي إِلَى اللهِ أَنْ يُعْلِنَ عِنْدَ حِوَارِهِ لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ تَجَرُّدَهُ عَنْ سَوَابِقِ أَفْكَارِهِ حَوْلَ مَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَأَنَّهُ يُقَدِّمُ قَضَايَا مَوْضُوعِهِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ لِلْبَحْثِ الْمُتَجَرِّدِ عَلَى مَائِدَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَعَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا أَنْ يَنْظُرَ بِتَجَرُّدٍ نَظَرًا فِكْرِيًّا عَقْلِيًّا عِلْمِيًّا، ثُمَّ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا أَنْ يَقْبَلَ مَا يُوصِلُ إِلَيْهِ الْبَحْثُ الْعِلْمِيُّ الْمُتَجَرِّدُ، وَيُذْعِنُ لَهُ، وَيُؤْمِنُ بِهِ"[1].

(١) مجد مكي/ المعين (ص٤٣٠).

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: "نَفَى عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنَ الْمُلْكِ أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى**﴾[الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ؛ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ، لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: **(ارْفَعْ رَأْسَك، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ)**[2].

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك؟ قَالَ: **(مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ)**[3]. فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ: مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا؛ أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ" انْتَهَى كَلَامُهُ[4].

قَوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هِيَ **(مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** خَبَرٌ يُفِيدُ الْعُمُومَ، أَيْ: مُنْتَفِيَةٌ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَالظَّنُّ بِهَذَا الْإِمَامِ أَنَّهُ لَا يَقْصِدُ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا الْعُمُومَ الْمُسْتَغْرِقَ، بَلْ يَقْصِدُ نَفْيَهَا عَنْ جُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ، وَذَلِكَ أَنَّ دَلِيلَ الْوَحْيِ أَفَادَ أَنَّهَا مَقْدُورَةٌ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى لِبَعْضِ مَنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا آنِفاً شَفَاعَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَمِنْهَا شَفَاعَةُ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾[النَّجْمُ: ٢٦]، فَهِيَ بَيَانٌ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَخْتَارُ بَعْضَ مَلَائِكَتِهِ وَيَأْذَنُ لَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ.

وَمِنْهَا شَفَاعَةُ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ؛ فَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى**

---

(١) هو أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٤٧٦)(٦/١٧)، مسلم/صحيحه(١٩٣)(١/١٨٠).

(٣) أخرجه: البخاري/صحيحه(٩٩)(١/٣١).

(٤) ابن تيمية/مجموع الفتاوى(٧/٧٧-٧٨).

الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ)، قَالَ: (فَيُنْجِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)، قَالَ: (ثُمَّ يُؤْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا فَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ)(١).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيٍّ مِثْلُ الْحَيَّيْنِ، أَوْ مِثْلُ أَحَدِ الْحَيَّيْنِ: رَبِيعَةَ وَمُضَرَ)(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رَبِيعَةَ، وَمُضَرَ) قَالَ هِشَامٌ: فَأَخْبَرَنِي حَوْشَبٌ عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّهُ أُوَيْسٌ الْقَرَنِيُّ قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ: فَقُلْتُ لِرَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ أُوَيْسٌ: «بِأَيِّ شَيْءٍ بَلَغَ هَذَا؟» قَالَ: فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ (٣).

وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ ﷻ - قَالَ الْحَكَمُ: سِتَّ خِصَالٍ - أَنْ يُغْفَرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى - قَالَ الْحَكَمُ: وَيُرَى - مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنَ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ - قَالَ الْحَكَمُ: يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ - وَيُوضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعَ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ)(٤).

وَمِنْهَا شَفَاعَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَعَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (الْقُرْآنُ: شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ؛ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ؛ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ)(٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (يَجِيءُ صَاحِبُ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ الْقُرْآنُ يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسَ تَاجَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسَ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ اقْرَأْ وَارْقَ، وَيَزْدَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً)(٦).

---

(١) حسن، أخرجه: أحمد/ مسنده (٢٠٤٤٠) (٣٤/ ٩٠).

(٢) حسن لغيره، أخرجه: أحمد/ مسنده (٢٢٢١٤) (٣٦/ ٥٤٧).

(٣) أخرجه: الحاكم/ المستدرك على الصحيحين (٥٧٢١) (٣/ ٤٥٧).

(٤)صحيح، أخرجه: احمد/ مسنده (١١٦٣) (٢٨/٤١٩).

(٥) صحيح، أخرجه: الهيثمي / مورد الظمآن (١/ ٤٤٣).

(٦) حسن، أخرجه: الترمذي / سننه (٢٩١٥) (ص ٤٦٥).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**)(١).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَشْفَعُ لِصَاحِبِهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ لِكُلِّ عَامِلٍ عُمَالَةٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنِّي كُنْتُ أَمْنَعُهُ اللَّذَّةَ وَالنَّوْمَ فَأَكْرِمْهُ، فَيُقَالُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ، فَتُمْلأُ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، ثُمَّ يُقَالُ: ابْسُطْ شِمَالَكَ فَتُمْلأُ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، وَيُكْسَى كِسْوَةَ الْكَرَامَةِ، وَيُحَلَّى بِحِلْيَةِ الْكَرَامَةِ، وَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ"(٢).

وَمِنْهَا شَفَاعَةُ الصِّيَامِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (**الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهْوَةَ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ فَيُشَفَّعَانِ**)(٣).

وَمِنْها: صَلَاةُ الْجَنَازَةِ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَبْلُغُونَ أَنْ يَكُونُوا مِائَةً، فَيَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ**)(٤).

وَمِنْهَا: شَفَاعَةُ الْمُؤْمِنِينَ: فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ فِي رُؤْيَةِ اللهِ ﷻ: (**فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ**)(٥).

وَمِنْهَا: شَفَاعَةُ الصُّحْبَةِ الْمُؤْمِنَةِ: فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ الرُّؤْيَةِ آنِفِ الذِّكْرِ،... وَفِيهِ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: (**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى**

---

(١) صحيح، أخرجه: أحمد / مسنده (٢٢٠٩٣) (٢٣١/١٦)؛ مسلم / صحيحه (٨٠٢) (ص٣١٤).

(٢) حسن، أخرجه: الدارمي/ سننه (٣٣٥٥) (٢٠٨٨/٤).

(٣) حسن صحيح، أخرجه: أحمد / مسنده (٦٦٢٦) (١٨٨/٦)؛ المنذري / الترغيب والترهيب (٥/٢).

(٤) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده (١٣٨٠٤) (٢١/ ٣١٥).

(٥) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٧٤٣٩) (٩/ ١٣٠).

النَّارِ، **فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدِ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ)**[1].

وَمِنْهَا: إِذَا مَاتَ الْوَلَدُ فِي صِغَرِهِ وَاحْتَسَبَهُ أَبَوَاهُ؛ فَعَنْ أَبِي حَسَّانَ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِيَ ابْنَانِ، فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: قَالَ: نَعَمْ، **(صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ**[2] **الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ -أَوْ قَالَ أَبَوَيْهِ-، فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ -أَوْ قَالَ بِيَدِهِ-، كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ**[3] **هَذَا، فَلَا يَتَنَاهَى -أَوْ قَالَ فَلَا يَنْتَهِي- حَتَّى يُدْخِلَهُ اللهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ)**[4].

وَعَنْ شُرَحْبِيلَ بنِ شُفْعَة، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **(إِنَّهُ يُقَالُ لِلْوِلْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ)** قَالَ: **(فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا)**، قَالَ: **(فَيَأْتُونَ)**، قَالَ: "فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: مَا لِي أَرَاهُمْ مُحْبَنْطِئِينَ[5]، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ"، قَالَ: **(فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ آبَاؤُنَا)**، قَالَ: **(فَيَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ)**[6].

وَمِنْهَا: السِّقْطُ: فَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ السِّقْطَ، لَيَجُرُّ أُمَّهُ بِسَرَرِهِ إِلَى الْجَنَّةِ إِذَا احْتَسَبَتْهُ)**[7].

فَهَؤُلَاءِ جَمِيعاً مِمَّنْ أَذِنَ اللهُ لَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ وَعَيَّنَ لَهُمْ مَنْ يَشْفَعُونَ لَهُ، وَلَوْلَا اللهُ تَعَالَى لَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ فَعُلِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَأْذَنْ اللهُ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ لَا يَمْلِكُونَهَا وَلَوْ كَانَ

---

(١) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٨٣) (١/ ١٦٩).

(٢) هُوَ بِالدَّالِ وَالْعَيْنِ وَالصَّادِ الْمُهْمَلَاتِ وَاحِدُهُمْ دُعْمُوصٍ بِضَمِّ الدَّالِ أَيْ صِغَارُ أَهْلِهَا وَأَصْلُ الدُّعْمُوصِ دُوَيْبَّةٌ تَكُونُ فِي الْمَاءِ لَا تُفَارِقُهُ أَيْ أَنَّ هَذَا الصَّغِيرَ فِي الْجَنَّةِ لَا يُفَارِقُهَا. انظر: النووي/شرحه على مسلم (١٦/ ١٨٢).

(٣)هُوَ بِفَتْحِ الصَّادِ وَكَسْرِ النُّونِ وَهُوَ طَرَفُهُ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا صَنِيفَةٌ قوله • فَلَا يَتَنَاهَى أَوْ قَالَ يَنْتَهِي حَتَّى يُدْخِلَهُ الله وأباه الجنة يتناهى وَيَنْتَهِي بِمَعْنًى أَيْ لَا يَتْرُكُهُ. انظر: النووي/شرحه على مسلم (١٦/ ١٨٢).

(٤) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٢٦٣٥) (٤/ ٢٠٢٩).

(٥) مُحْبَنْطِئين، بضم فسكون حاء مهملة ثم فتح موحدة فسكون نون فكسر طاء مهملة فهمزة: من احبنطأ كاحرنجم، أي: انتفخ جوفه، وامتلأ غيظاً. وقال ابن الأثير في "النهاية": المحبنطىء بالهمز وتركه: المتغضب المستبطىء للشيء، وقيل: هو الممتنع امتناع طَلِبَة، لا امتناع إباء. حاشية مسند أحمد (٢٨/ ١٧٥).

(٦) إسناده جيد، أخرجه: أحمد/ مسنده (١٦٩٧١) (٢٨/ ١٧٤).

(٧) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/ سننه (١٦٠٩) (١/ ٥١٣).

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

وَقَوْلُهُ: (**ارْفَعْ رَأْسَك، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**) **قُلْتُ:** هُوَ ثَابِتٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَفِيهِ: (**فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ -أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى-**)[1].

وَفِيهِ بَيَانٌ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَشْفَعُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ وَلَا يُطِيقُ ذَلِكَ، بَلِ اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي مَنَحَهُ ذَلِكَ وَأَذِنَ لَهُ بِهِ، ثُمَّ اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ لَهُ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فَلَا شَفَاعَةَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، كَمَا سَيَأْتِي.

وَقَوْلُهُ: (وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك؟ قَالَ: (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**) وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَشْفَعُ لِمَنْ يَشَاءُ، بَلْ يَهْدِيهِ اللهُ تَعَالَى لِمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ).

وَقَوْلُهُ: (فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ. وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ: مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا؛ أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ - أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ":

هُوَ بَيَانٌ ظَاهِرٌ: أَنَّ طَلَبَ الشَّفَاعَةِ مِنْ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى شِرْكٌ، لِمَا فِيهِ مِنْ صَرْفِ مَا للهِ إِلَى غَيْرِهِ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ تَكْذِيبِ الْحَقِيقَةِ الثَّابِتَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٤٧١٢) (٦/ ٨٥).

فِي أَمْرِ الشَّفَاعَةِ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا، إِلَّا لِمَنْ يَأْذَنُ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِذَلِكَ وَيَرْضَى بِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَاتِ.

الثَّانِيَةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمَنْفِيَّةِ.

الثَّالِثَةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثْبَتَةِ.

الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

الْخَامِسَةُ: صِفَةُ مَا يَفْعَلُه ﷺ، وَأَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً، بَلْ يَسْجُدُ؛ فَإِذَا أَذِنَ اللهُ لَهُ شَفَعَ.

السَّادِسَةُ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

السَّابِعَةُ: أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الثَّامِنَةُ: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

الْبَابُ (١٧)

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الْقَصَصُ:٥٦] الْآيَةُ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَى نَفَى عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ الْقُدْرَةَ عَلَى هِدَايَةِ الْقُلُوبِ، وَتَوْفِيقِهَا إِلَى الْإِيمَانِ، وَعِصْمَتِهَا مِنَ الْكُفْرَانِ، وَهِيَ مَنْفِيَّةٌ عَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ، سَوَاءٌ كَانَ نَبِيّاً مُرْسَلاً، أَوْ مَلَكاً مُقَرَّباً، فَضْلاً عَمَّنْ دُونَهُمْ.

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ إِخْبَاراً عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي مَا انْفَكَّ يَدْعُو أَبَاهُ ﴿يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا، يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مُرْيَمُ:٤٢ - ٤٥]، وَكَذَلِكَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَدْعُو ابْنَهُ قَالَ: ﴿يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هُودُ:٤٢-٤٣]، بَلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَمْلِكُ الْهِدَايَةَ لِنَفْسِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الْأَنْفَالُ: ٢٤].

وَقَدْ تَفَرَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى عِصْمَةِ الْقُلُوبِ مِنَ الْكُفْرِ، وَنَشْرِ نُورِ الْهِدَايَةِ فِيهَا، وَقَدْ نُصَّ عَلَى ذَلِكَ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا، حَيْثُ قَالَ اللهُ بَعْدَ أَنْ نَفَاهَا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الْقَصَصُ:٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ [آلُ عِمْرَانَ:٧٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [الْبَقَرَةُ:١٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الْأَعْرَافُ:٤٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النَّحْلُ:٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ، وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ، حَتَّى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ، وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التُّرَابِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قَالَ: ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا[1].

وَزِيَادَةً فِي الْبَيَانِ أَقُولُ:

إِنَّ الْهِدَايَةَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: هِدَايَةُ بَيَانٍ وَإِرْشَادٍ، وَهِيَ مَقْدُورَةٌ لِلْعِبَادِ، وَهُمْ فِيهَا عَلَى تَفَاوُتٍ، أَعْظَمُهُمْ حظّاً الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ، ثُمَّ الصِّدِّيقُونَ وَالْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرَّعْدُ:٧].

أَيْ: مَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ –فِي حَقِّ مَنْ أَقَمْتَ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ الْبَيَانِ، وَأَدَّيْتَ فِيهِمْ أَمَانَةَ الدَّعْوَةِ فَعَانَدُوا وَكَذَّبُوا– إِلَّا مُحَذِّرٌ مِمَّا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَسْتَ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ فِي هَذَا السَّبِيلِ، فَإِنَّا قَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكَ رَسُولاً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى، وَيَدُلُّهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَيُبَشِّرُ أَهْلَ الاِسْتِجَابَةِ، وَيُحَذِّرُ أَهْلَ الْإِعْرَاضِ وَالنُّفُورِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَةُ:٢٤] أَيْ: وَجَعَلْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَادَةً لِلْحَقِّ يُقْتَدَى بِهِمْ، يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا نَالُوا هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ الرَّفِيعَةَ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ صَبَرُوا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكِ الْمَنْهِيَّاتِ، وَعَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلِأَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا فِي كِتَابِ التَّوْرَاةِ يُصَدِّقُونَ تَصْدِيقاً لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يُدَاخِلُهُ شَكٌّ، فَإِذَا آمَنْتُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِالْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَصَبَرْتُمْ وَأَيْقَنْتُمْ، جَعَلْنَا مِنْكُمْ هُدَاةً وَدُعَاةً إِلَى الْخَيْرِ، يَأْتَمُّ النَّاسُ بِهِمْ[2].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِرُ: ٢٣-٢٤].

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤١٠٦)(٥/ ١١٠)، مسلم/صحيحه (١٨٠٢)(٣/١٤٢٧).

(٢) مجد مكي/ تفسيره(ص ٤١٧).

أَيْ: إِنْ أَنْتَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ إِلَّا نَذِيرٌ بِعَذَابِ اللهِ ﷻ، مِنْ بَعْدِ الدَّعْوَةِ وَالْبَيَانِ، وَسَوْقِ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ.

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَكَ بِالْحَقِّ الثَّابِتِ الْمُطَابِقِ لِلْوَاقِعِ، مُبَشِّرَاً بِرِضْوَانِ اللهِ وَجَنَّتِهِ لِمَنْ آمَنَ بِك وَاتَّبَعَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَمُنْذِرَاً بِالْعِقَابِ لِمَنْ كَفَرَ، وَمَا مِنْ جَمَاعَةٍ مَضَتْ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، إِلَّا مَضَى فِيهَا نَبِيٌّ يُبَلِّغُهَا وَيَدْعُوهَا إِلَى اللهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيُبَشِّرُهَا بِرِضْوَانِ اللهِ وَجَنَّتِهِ، إِذَا اسْتَجَابَتْ لِدَعْوَةِ رَبِّهَا، وَيُنْذِرُهَا بِسَخَطِهِ وَنِقْمَتِهِ وَعَذَابِهِ، إِذَا لَمْ تَسْتَجِبْ؛ لَكِنَّ مُعْظَمَ هَذِهِ الْأُمَمِ لَمْ تَسْتَجِبْ لِبَلَاغَاتِ الرُّسُلِ، وَكَفَرُوا وَعَانَدُوا، فَأَنْذَرَهُمْ بِالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ الْمُدَمِّرِ(١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَى:٥٢].

أَيْ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ حِينَ أَوْحَيْنَا إِلَى الرُّسُلِ قَبْلَكَ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، سَمَّاهُ رُوحَاً؛ لِأَنَّ الرُّوحَ يَحْيَا بِهِ الْجَسَدُ، وَالْقُرْآنُ تَحْيَا بِهِ الْقُلُوبُ وَالْأَرْوَاحُ، وَتَحْيَا بِهِ مَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ، وَالْعِلْمِ الْغَزِيرِ.

وَهُوَ مَحْضُ مِنَّةِ اللهِ عَلَى رَسُولِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مِنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ أَيْ: قَبْلَ نُزُولِهِ عَلَيْكَ ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أَيْ: لَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ بِأَخْبَارِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَلَا إِيمَانٌ وَعَمَلٌ بِالشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ، بَلْ كُنْتَ أُمِّيًّا لَا تَخُطُّ وَلَا تَقْرَأُ، فَجَاءَكَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يَسْتَضِيئُونَ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ، وَالْأَهْوَاءِ الْمُرْدِيَةِ، وَيَعْرِفُونَ بِهِ الْحَقَائِقَ، وَيَهْتَدُونَ بِهِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: تُبَيِّنُهُ لَهُمْ وَتُوَضِّحُهُ، وَتُنِيرُهُ وَتُرَغِّبُهُمْ فِيهِ، وَتَنْهَاهُمْ عَنْ ضِدِّهِ، وَتُرَهِّبُهُمْ مِنْهُ(٢).

---

(١) مجد مكي/ تفسيره (ص٤٣٧).

(٢)السعدي/ تفسيره (ص ٧٦٢).

وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ -هِدَايَةُ بَيَانٍ وَإِرْشَادٍ- الَّتِي مَنَحَهَا اللهُ تَعَالَى لِلْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَجَعَلَهُمْ قَادِرِينَ أَنْ يَقُومُوا بِهَا فِي النَّاسِ مُرْشِدِينَ وَمُبَيِّنِينَ، يَجُوزُ لِلنَّاسِ أَنْ يَطْلُبُوهَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَلَا يَتَنَافَى طَلَبُهُمْ مَعَ التَّوحِيدِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَوْ طَلَبْتَ مِنْ رَجُلٍ أَنْ يَحْمِلَ مَتَاعَكَ، وَمَا أَكْثَرَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ هَذِهِ الْهِدَايَةِ، وَلَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ؛ فَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: **(لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ)** ثُمَّ قَالَ: **(أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾** حَتَّى بَلَغَ **﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [السَّجْدَةُ: ١٧]) ثُمَّ قَالَ: **(أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ الْجِهَادُ)** ثُمَّ قَالَ: **(أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟)** قُلْتُ: بَلَى، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: **(تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا)** قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: **(ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟)**(١).

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْنِينِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: **(تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ ذَا رَحِمِكَ)** فَلَمَّا أَدْبَرَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(إِنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ)**(٢).

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْيَشْكُرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ الْكُوفَةِ أَوَّلَ مَا بُنِيَ مَسْجِدُهَا، وَهُوَ فِي أَصْحَابِ التَّمْرِ يَوْمَئِذٍ، وَجُدُرُهُ مِنْ سِهْلَةٍ، فَإِذَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ النَّاسَ، قَالَ: بَلَغَنِي حَجَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَجَّةُ الْوَدَاعِ، فَاسْتَتْبَعْتُ رَاحِلَةً مِنْ إِبِلِي، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جَلَسْتُ لَهُ فِي طَرِيقِ عَرَفَةَ - أَوْ وَقَفْتُ لَهُ فِي طَرِيقِ عَرَفَةَ - قَالَ: فَإِذَا رَكْبٌ عَرَفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ بِالصِّفَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ أَمَامَهُ: خَلِّ لِي عَنْ طَرِيقِ الرِّكَابِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(وَيْحَهُ فَأَرَبٌ مَا لَهُ)** فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى اخْتَلَفَتْ رَأْسُ النَّاقَتَيْنِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي

---

(١) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/ سننه (٣٩٧٣) (٢/ ١٣١٤).

(٢) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٣) (١/ ٤٣).

الْجَنَّةَ، وَيُنْجِينِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: **(بَخٍ بَخٍ، لَئِنْ كُنْتَ قَصَّرْتَ فِي الْخُطْبَةِ، لَقَدْ أَبْلَغْتَ فِي الْمَسْأَلَةِ افْقَهْ إِذًا، تَعْبُدُ اللَّهَ ﷻ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، خَلِّ طَرِيقَ الرِّكَابِ)**(١).

وَعَنْ مَعْنِ بْنِ يَزِيدَ ﷺ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ " دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: **(لَقَدْ أَوْجَزْتَ فِي الْمَسْأَلَةِ وَلَقَدْ أَعْرَضْتَ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُصَلِّي الْخَمْسَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَاكْرَهْهُ لَهُمْ)**(٢).

النَّوْعُ الثَّانِي: هِدَايَةُ الْقُلُوبِ وَتَوْفِيقُهَا إِلَى الْإِيمَانِ، وَعِصْمَتُهَا مِنَ الْكُفْرَانِ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِاللهِ وَحْدَهُ، غَيْرُ مَقْدُورَةٍ لِخَلْقِهِ، وَإِنْ كَانُوا رُسُلاً أَوْ مَلَائِكَةً مُقَرَّبِينَ، فَوَجَبَ عَلَى النَّاسِ أَلَّا يَسْأَلُوا هَذِهِ الْهِدَايَةَ إِلَّا مِنَ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِهَا قَدَرًا وَتَوْفِيقًا؛ فَإِذَا سَأَلُوهَا مِنْ غَيْرِ اللهِ وَقَعُوا فِي الشِّرْكِ؛ وَلِأَجْلِ هَذَا ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْبَابَ وَضَمَّنَهُ جُمْلَةً مِنْ أَدِلَّةِ الْوَحْيِ، مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** [الْقَصَصُ: ٥٦].

أَيْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا حَرَصَ عَلَى نَجَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَكَانَ يَنْصُرُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَمْنَعُ عَنْهُ أَذَى النَّاسِ وُسْعَهُ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ بَيَانًا أَنَّ هِدَايَةَ الْقُلُوبِ غَيْرُ مَقْدُورَةٍ لَكَ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ جَاءَتْ الْآيَاتُ تُؤَيِّدُ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: **﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** [الْبَقَرَةُ: ٢٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** [يُوسُفُ:١٠٣]، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** [الْأَعْرَافُ: ١٨٨]، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾** [فَاطِرُ: ٨].

---

(١) ضعيف، أخرجه: أحمد/ مسنده (١٥٨٨٣)(٢٥/ ٢١٧).

(٢) رجاله موثقون، أخرجه: الطبراني/ المعجم الكبير (١٠٦٩) (١٩/ ٤٤٠).

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يَطْلُبُوهُ الْهِدَايَةَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي يَتْلُونَهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ رَكَعَاتِ صَلَاتِهِمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[الْفَاتِحَةُ:٦- ٧].

وَمَا انْفَكَّ دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ بِطَلَبِ الْهِدَايَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَمَا كَثْرَةُ دُعَائِهِ ﷺ إِلَّا بَيَانٌ ظَاهِرٌ لِعَظِيمِ قَدْرِهَا، وَأَنَّهَا لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَإِلَيْكَ بَعْضًا مِنْ دُعَائِهِ ﷺ فِي طَلَبِ الْهِدَايَةِ، فَعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**)(١).

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**قُلِ اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ، بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ، سَدَادَ السَّهْمِ**)(٢).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ يَقُولُ فِيمَا بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: (**رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَارْفَعْنِي، وَارْزُقْنِي، وَاهْدِنِي**)(٣).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: (**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مُطِيعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**)(٤).

وَعَنْ حَسَّانَ بنِ عَطِيَّةَ، قَالَ: كَانَ شَدَّادُ بنُ أَوْسٍ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ لِغُلَامِهِ: ائْتِنَا بِالسُّفْرَةِ نَعْبَثْ بِهَا، فَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا أَخْطِمُهَا وَأَزُمُّهَا غَيْرَ كَلِمَتِي هَذِهِ، فَلَا تَحْفَظُوهَا عَلَيَّ، وَاحْفَظُوا مِنِّي مَا أَقُولُ لَكُمْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (**إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي**

---

(١) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٢٧٢١) (٤/ ٢٠٨٧).

(٢) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٢٧٢٥) (٤/ ٢٠٩٠).

(٣)حسن، أخرجه: أحمد/ مسنده (٣٥١٤) (٥/ ٤٦٠).

(٤)صحيح، أخرجه: ابن ماجه/ سننه (٣٨٣٠) (٢/ ١٢٥٩).

الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)(١).

وَعَنِ الْحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ، - قَالَ ابنُ جَوَّاسٍ فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ: - (اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ)(٢).

وَعَن أَبِي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: (اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(٣).

ثُمَّ أَوْرَدَ الْمُصَنِّفُ بَعْدَ الْآيَةِ دَلِيلاً مِنَ السُّنَّةِ، فَقَالَ:

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ بنِ الْمُغِيرَةِ، وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: (يَا عَمِّ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ). فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادُوا عَلَيْهِ، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ) فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التَّوبَة:١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الْقَصَصُ:٥٦](٤).

---

(١) أخر حسن، أخرجه: أحمد/ مسنده (١٧١١٤) (٢٨/ ٣٣٨).

(٢) صحيح، أخرجه: أبو داود/ سننه (١٤٢٥) (٢/ ٦٣).

(٣) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٧٧٠) (١/ ٥٣٤).

(٤) أخرجه: البخاري/صحيحه(١٣٦٠)(٢/٩٥)، مسلم/صحيحه(٢٤)(١/٥٤).

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ)** أَيْ: عَلَامَاتُ الْوَفَاةِ نَحْوُ كِبَرِ السِّنِّ، وَشِدَّةِ الْمَرَضِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارَاً عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونُس: ٩٠- ٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٧-١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غَافِرُ: ٨٤-٨٥].

وَعَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)**[١].

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَانَ تَلْقِينُ أَبِي طَالِبٍ الشَّهَادَةَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْغَرْغَرَةِ[٢].

وَفِيهِ: أَنَّ التَّوْبَةَ مَقْبُولَةٌ وَلَوْ فِي شِدَّةِ مَرَضِ الْمَوْتِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْمُعَايَنَةِ فَلَا يُقْبَلُ[٣]؛ لِلْأَدِلَّةِ آنِفَةِ الذِّكْرِ.

الثَّانِيَةُ: أَبُو طَالِبٍ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ شَقِيقُ عَبْدِ اللهِ وَالِدِ النَّبِيِّ ﷺ كَفِلَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَكَانَ عِنْدَ عَمِّهِ مَوْضِعَ الْعِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ، حَتَّى انْتَهَى النَّبِيُّ ﷺ إِلَى النُّبُوَّةِ، وَأَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِالرِّسَالَةِ، وَرَمَتْهُ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ يَحُوطُهُ وَيَمْنَعُهُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنْ مُسَانَدَةِ أَبِي طَالِبٍ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ: ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا وَثَّبَتْ كُلَّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ يُعَذِّبُونَهُمْ وَيَفْتِنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَمَنَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَامَ أَبُو طَالِبٍ فَدَعَا بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ

---

(١) حسن، أخرجه: الترمذي/ سننه (٣٥٣٧) (٥/ ٥٤٧).

(٢) ابن حجر/ فتح الباري (١٩٥/٧).

(٣) ابن حجر/ فتح الباري (١٩٦/٧).

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْقِيَامِ دُونَهُ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ وَقَامُوا مَعَهُ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْخَاسِرِ أَبِي لَهَبٍ، فَجَعَلَ أَبُو طَالِبٍ يَمْدَحُهُمْ وَيَذْكُرُ قَدِيمَهُمْ، وَيَذْكُرُ فَضْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَشْعَارًا، ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا خَشِيَ دَهْمَاءَ الْعَرَبِ أَنْ يُرْكِبُوهُ مَعَ قَوْمِهِ لَمَّا انْتَشَرَ ذِكْرُهُ قَالَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي مِنْهَا:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وُدَّ فِيهِمُ ... وَقَدْ قَطَّعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ صَارَحُونَا بِالْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى ... وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمُزَايِلِ
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ ... وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ الْمَقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي ... وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ ... عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلِ

وَفِيهَا يَقُولُ:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللَّهِ نُبْزَى مُحَمَّدًا ... وَلَمَّا نُطَاعِنْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ... وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ
وَيَنْهَضَ قَوْمٌ نَحْوَكُمْ غَيْرُ عُزَّلٍ ... بِبِيضٍ حَدِيثٍ عَهْدُهَا بِالصَّيَاقِلِ
وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَلُوذُ بِهِ الْهُلَّاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... فَهُمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
لَعَمْرِي لَقَدْ كُلِّفْتُ وَجْدًا بِأَحْمَدَ ... وَإِخْوَتِهِ دَأْبَ الْمُحِبِّ الْمُوَاصِلِ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمَّلٍ ... إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ ... يُوَالِي إِلَهًا لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلِ
فَوَ اللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَجِيءَ بِسُبَّةٍ ... تُجَرُّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازُلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدُ ذو أَرُومَةٍ ... يُقَصِّرُ عَنْهَا سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ
حَدِبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمَيْتُهُ ... وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَى وَالْكَلَاكِلِ
جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلا ... عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلا غَيْرَ آجِلِ[١].

---

(١) الذهبي / تاريخ الإسلام (٥٦٢/١)

وَذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يُرْسِلُ كُلَّ يَوْمٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رِجَالًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَحْرُسُونَهُ حَتَّى نَزَلَ: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**يَا عَمَّاهُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَنِي مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَلَا أَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَحْرُسُنِي**)[1][2].

وَرَوَى أَهْلُ السِّيَرِ قَالُوا: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ خَرَجَ إِلَى الْكَعْبَةِ يَوْمًا وَأَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ: مَنْ يَقُومُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ. فَقَامَ ابنُ الزِّبَعْرَى فَأَخَذَ فَرْثًا وَدَمًا فَلَطَّخَ بِهِ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ فَانْفَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ، ثُمَّ أَتَى أَبَا طَالِبٍ عَمَّهُ فَقَالَ: (**يَا عَمِّ أَلَا تَرَى إِلَى مَا فُعِلَ بِي؟**) فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِكَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزِّبَعْرَى، فَقَامَ أَبُو طَالِبٍ وَوَضَعَ سَيْفَهُ عَلَى عَاتِقِهِ وَمَشَى مَعَهُ حَتَّى أَتَى الْقَوْمَ، فَلَمَّا رَأَوْا أَبَا طَالِبٍ قَدْ أَقْبَلَ جَعَلَ الْقَوْمُ يَنْهَضُونَ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللَّهِ لَئِنْ قَامَ رَجُلٌ جَلَّلْتُهُ بِسَيْفِي فَقَعَدُوا حَتَّى دَنَا إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ مَنِ الْفَاعِلُ بِكَ هَذَا؟ فَقَالَ: (**عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزِّبَعْرَى**) فَأَخَذَ أَبُو طَالِبٍ فَرْثًا وَدَمًا فَلَطَّخَ بِهِ وُجُوهَهُمْ وَلِحَاهُمْ وَثِيَابَهُمْ وَأَسَاءَ لَهُمُ الْقَوْلَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ" ﴿**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ**﴾" فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**يَا عَمِّ نَزَلَتْ فِيكَ آيَةٌ**) قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: (**تَمْنَعُ قُرَيْشًا أَنْ تُؤْذِيَنِي وَتَأْبَى أَنْ تُؤْمِنَ بِي**)فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ:

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَأَبْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونَا
وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْلُ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتَ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ يَقِينَا [3].

قَالَ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَدْ لَقِيَ أَبُو طَالِبٍ مَا يُطِيقُ وَمَا لَا يُطِيقُ فِي نُصْرَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَتَّى قَالَ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي سَاعَةِ شِدَّةٍ وَحَرَجٍ: "يَا ابنَ أَخِي، إِنْ قَوْمَكَ قَدْ جَاءُونِي، فَقَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا لِلَّذِي قَالُوا لَهُ

---

(١)ضعيف، أخرجه: الطبراني/ المعجم الكبير (١١٦٦٣)(١١/٢٥٦).

(٢) القرطبي/ تفسيره (٦/ ٢٤٤).

(٣)القرطبي/ تفسيره (٦/ ٢٤٤).

فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ. قَالَ: فَظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيهِ بِدَاءٌ، وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ، وَأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**يَا عَمِّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ**). قَالَ: ثُمَّ اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَكَى، ثُمَّ قَامَ، فَلَمَّا وَلَّى نَادَاهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: أَقْبِلْ يَا بنَ أَخِي. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: اذْهَبْ يَا بنَ أَخِي، فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ، فَوَ اللَّهِ لَا أُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا»[1][2].

وَصَدَقَ فِي وَعْدِهِ، فَلَمْ يُسْلِمْهُ لِأَحَدٍ رُغْمَ شِدَّةِ مَا كَانَ مِنْ مَكْرِهِمْ وَعَدَائِهِمْ، **قَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:** ثُمَّ إِنَّهُمُ اشْتَدُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَأَشَدِّ مَا كَانُوا، حَتَّى بَلَغَ الْمُسْلِمِينَ الْجَهْدُ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فِي مَكْرِهَا أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَةً، فَلَمَّا رَأَى أَبُو طَالِبٍ عَمَلَهُمْ جَمَعَ بَنِي هَاشِمٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُدْخِلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شِعْبَهُمْ وَيَمْنَعُوهُ مِمَّنْ أَرَادَ قَتْلَهُ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى ذَلِكَ مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ فَعَلَهُ حَمِيَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ فَعَلَهُ إِيمَانًا، فَلَمَّا عَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ مَنَعُوهُ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ أَنْ لَا يُجَالِسُوهُمْ، وَلَا يُبَايِعُوهُمْ، حَتَّى يُسْلِمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِلْقَتْلِ، وَكَتَبُوا فِي مَكْرِهِمْ، صَحِيفَةً وَعُهُودًا وَمَوَاثِيقَ، لَا يَقْبَلُوا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَبَدًا صُلْحًا، وَلَا تَأْخُذُهُمْ بِهِمْ رَأْفَةٌ حَتَّى يُسْلِمُوهُ لِلْقَتْلِ.

فَلَبِثَ بَنُو هَاشِمٍ فِي شِعْبِهِمْ، يَعْنِي ثَلَاثَ سِنِينَ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَقَطَعُوا عَنْهُمُ الْأَسْوَاقَ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ إِذَا نَامَ النَّاسُ أَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاضْطَجَعَ عَلَى فِرَاشِهِ، حَتَّى يَرَى ذَلِكَ مَنْ أَرَادَ مَكْرًا بِهِ وَاغْتِيَالَهُ، فَإِذَا نَامَ النَّاسُ أَمَرَ أَحَدَ بَنِيهِ أَوْ إِخْوَتِهِ فَاضْطَجَعَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَيَأْتِي رَسُولُ اللَّهِ فِرَاشَ ذَلِكَ فَيَنَامُ عَلَيْهِ"[3].

وَلَقَدْ دَامَ مُكْثُ بَنِي هَاشِمٍ فِي شِعْبِهِمْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، وَخَرَجُوا مِنْهُ فِي سَنَةِ عَشْرٍ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ سَنَةَ ٦٢٠م[4].

---

(١)ضعيف، أخرجه: ابن اسحق/ السير والمغازي (ص١٥٤).

(٢) انظر: القرطبي/ تفسيره (٦/ ٢٤٤)، ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢٢/٤).

(٣) الذهبي/ تاريخ الإسلام (٢٢٢/١).

(٤) انظر: ابن حبيب البغدادي/ المحبر (ص ١١).

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: **(جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ، وَأَبُو جَهْلٍ)** فَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بنُ أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيُّ، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ، وَأَمَّا أَبُو جَهْلٍ عَمْرُو بنُ هِشَامٍ، فَقَدْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، وَكَانَ شَدِيداً فِيهِ، وَطَالَمَا حَرَّضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بُطُونَ قُرَيْشٍ، وَقَدْ سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ فِرْعَونَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهُوَ الَّذِي قَادَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَهُوَ الَّذِي حَرَّضَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ كَافِراً.

الرَّابِعَةُ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ الْمُشْرِكِ مِنْ أَجْلِ دَعْوَتِهِ إِلَى اللهِ ﷻ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَادَ عَمَّهُ مِنْ أَجْلِ دَعْوَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: **(أَيْ عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** فِيهِ بَيَانٌ لِرَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَفَقَتِهِ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا مُسْلِمِينَ، فَبَادَرَ إِلَى عَمِّهِ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، رَجَاءَ أَنْ يَنَالَ شَفَاعَتَهُ ﷺ.

السَّادِسَةُ: وَفِيهِ بَيَانٌ فِي جَعْلِ التَّوْحِيدِ فِي صَدَارَةِ الدَّعْوَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ الْفِقْهُ الْأَكْبَرُ، وَأَنَّهُ قَاعِدَةُ الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا يَكَادُ يَثْبُتُ بِدُونِهَا شَيْءٌ، وَلَا يُقْبَلُ مَعَ عَدَمِهَا عَمَلٌ، وَقَدْ تَأَكَّدَ هَذَا بِعَدِيدٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ مِنْهَا:

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذاً رضي الله عنه إِلَى اليَمَنِ، فَقَالَ: **(ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ)**(١).

وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ)**. قَالَ: فَغَدَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطِيَهُ الرَّايَةَ. قَالَ: **(أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ)**؟ قَالُوا: هُوَ شَاكِي الْعَيْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: **(ادْعُوهُ)**. فَجِيءَ بِهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ، ثُمَّ أَعْطَاهُ الرَّايَةَ، ثُمَّ قَالَ: **(ادْعُ عَلِيًّا)**، فَجَاءَ ثُمَّ قَالَ: **(يَا عَلِيُّ، لَا تَلْتَفِتْ حَتَّى تَنْزِلَ بِالْقَوْمِ فَتَدْعُوَهُمْ)**، فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟** قَالَ: **(عَلَى رِسْلِكَ، إِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَأَنْ يُسْلِمَ رَجُلٌ عَلَى يَدَيْكَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ**

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (١٣٥٩) (٢/١٠٤).

يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)[١].

السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)** وَفِي رِوَايَةٍ: **(أَشْهَدُ لَكَ بِهَا)**[٢]، وَفِي رِوَايَةٍ: **(أُجَادِلُ عَنْكَ بِهَا)**[٣]، فِيهِ بَيَانٌ أَنَّ مَنْ قَال: (لَا إِلَه إِلَا الله) يُحْكَمُ بِإِسْلامِهِ، وتُرْجَى نَجَاتُهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ.

فَائِدَةُ تَعَدُّدِ الرِّوَايَاتِ:

قَالَ ابنُ حَجَرٍ: قَوْلُهُ: (أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ) وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَهِمَ مِنَ امْتِنَاعِ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الشَّهَادَةِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ أَنَّهُ ظَنَّ أنّ ذَلِك لَا يَنْفَعُهُ لِوُقُوعِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ لِكَوْنِهِ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ سَائِرِ الْأَعْمَالِ، كَالصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا؛ فَلِذَلِكَ ذَكَرَ لَهُ الْمُحَاجَجَةَ[٤].

وَفِي رِوَايَةٍ: **(أَشْهَدُ لَكَ بِهَا)** فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُ إِذْ لَمْ يَحْضُرْهُ حِينَئِذٍ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَطَيَّبَ قَلْبَهُ بِأَنْ يَشْهَدَ لَهُ بِهَا فَيَنْفَعَهُ[٥].

وَفِي رِوَايَةٍ: **(أُجَادِلُ لَكَ بِهَا)** يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَبُو طَالِبٍ قَدْ انْتَهَى إِلَى الْمُعَايِنَةِ لَكِنْ رَجَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَلَوْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ بِخُصُوصِهِ وَتَسُوغُ شَفَاعَتُهُ ﷺ لِمَكَانِهِ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: **(أُجَادِلُ لَكَ بِهَا)**[٦].

الثَّامِنَةُ: أَفَادَتْ السُّنَّةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَفَعَ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، فَعَنِ الْعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؓ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: **(هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ**[٧] **مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)**[٨].

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ الصَّحَابَةَ ؓ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ تَنْفَعُ أَبَا طَالِبٍ نُصْرَتُهُ؟ قَالَ: **(نَعَمْ،**

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٠٠٩) (٤/ ٦٠)، مسلم/ صحيحه (٢٤٠٦)(٤/ ١٨٧٢).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (١٣٦٠) (٢/ ٩٥).

(٣) مرسل، أخرجه: الطبري/ تفسيره (١٩/ ٦٠٠).

(٤) ابن حجر/ فتح الباري (٧/ ١٩٥).

(٥) ابن حجر/ فتح الباري (٧/ ١٩٥).

(٦) ابن حجر/ فتح الباري (٧/ ٥٠٦).

(٧) قال الليث: الضحضاح: الماء إلى الكعبين، أو إلى أنصاف السوق. انظر: تهذيب اللغة (٣/ ٢٥٧).

(٨) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٨٨٣) (٥/ ٥٢).

دُفِعَ عَنْهُ بِذَاكَ الْغُلُّ، وَلَمْ يُقْرَنْ مَعَ الشَّيَاطِينِ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي جُبِّ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ، إِنَّمَا عَذَابُهُ فِي نَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ فِي رِجْلَيْهِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ فِي رَأْسِهِ، وَذَلِكَ أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا)[1].

التَّاسِعَةُ: قَوْلُهُ: **(يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)** فِيهِ تَنْفِيرٌ مِنَ جُلَسَاءِ السُّوءِ، فَإِنَّهُمْ شَرٌّ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ كَانَا سَبَبًا فِي تَرْكِ الْخَيْرِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْبَاطِلِ.

الْعَاشِرَةُ: قَوْلُهُ: **(عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)** فِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الشِّيعَةِ وَالْخُرَافِيِّينَ؛ لِأَنَّ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ[2].

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرَبَ الْأَقْحَاحَ كَانُوا أَهْلَ صِدْقٍ وَفِطْنَةٍ وَذَكَاءٍ، وَكَانُوا أَهْلَ وَفَاءٍ، سَوَاءٌ فِي مَيْدَانِ الْخَيْرِ أَوْ فِي مَيْدَانِ الشَّرِّ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَالَّذِينَ مَعَهُ قَدْ عَقَلُوا مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّهَا تَرْكُ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تُقَالُ، وَإِنَّمَا هِيَ كُفْرٌ بِالطَّاغُوتِ وَإِيمَانٌ بِاللَّهِ ﷻ، بِخِلَافِ مَا يَعْتَقِدُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَلَا يَكُفُّونَ عَنِ التَّوَسُّلِ بِالْأَنْدَادِ، وَاتِّخَاذِهِمْ أَنْدَادًا مِنْ دُونِ اللهِ.

فَدَلَّ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ أَفْهَمُ مِنْهُمْ بِمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلاّ اللهُ، فَقَدْ فَهِمَ أَنَّ مَعْنَاهَا يَقْتَضِي تَرْكَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ[3].

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: فِي الْحَدِيثِ رَدٌّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ الْمَعْرِفَةِ أَوْ الِاعْتِقَادِ، فَإِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ بِقَلْبِهِ أَوْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَلَوْ لَمْ يَعْمَلْ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُسْلِمًا؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ لَيْسَتْ شَرْطًا فِي الْإِيمَانِ، بَلْ مُجَرَّدُ الْمَعْرِفَةِ أَوْ الِاعْتِقَادِ بِالْقَلْبِ يَكْفِي عِنْدَهُمْ، وَهَذَا بَاطِلٌ، لِأَنَّهَا لَمْ تُعْتَبَرْ مَعْرِفَةُ أَبِي طَالِبٍ لِرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، لَمْ تُعْتَبَرْ إِسْلَامًا، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾[الْأَنْعَامُ:٣٣]، فَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، لَكِنَّ الْكِبْرَ وَالْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ، جَعَلَتْهُمْ لَا يَقْبَلُونَ الدَّعْوَةَ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا بِقُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا حَكَى عَنْ مُوسَى ﷺ أَنَّهُ قَالَ

---

(١) القرطبي/ تفسيره (٦/ ٢٤٤).

(٢) الفوزان/ إعانة المستفيد(١/ ٢٦٠).

(٣) انظر: الفوزان/إعانة المستفيد(١/ ٢٦٠).

لِفِرْعَوْنَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإِسْراءُ:١٠٢]، فَبَانَ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ عَالِمًا بِقَلْبِهِ صِحَّةَ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، غَيْرَ أَنَّ الْكِبْرَ وَالْكُفْرَ مَنَعَهُ الِاسْتِجَابَةَ وَالْإِذْعَانَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمْلُ:١٤] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ:١٥٧]، فَالْيَهُودُ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الْبَقَرَةُ:١٤٦] أَيْ: يَعْرِفُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ بِيَقِينٍ.

وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ يَعْرِفُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَصَرَّحَ بِهَذَا فِي قَصَائِدِهِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتَ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ يَقِينَا [1].

فَالَّذِي مَنَعَهُ هُوَ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَقَالَ: "وَهُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ"، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) فِيهِ بَيَانٌ ظَاهِرٌ لِشَفَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَمِّهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَقْسَمَ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الِاسْتِغْفَارِ وَيَدُومَ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: (مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ) فِيهِ بَيَانٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِعَمِّهِ أَكْثَرَ مِنَ الدُّعَاءِ بِطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ.

وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ وَقَّافاً عِنْدَ حُدُودِ اللهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ وُسْعَهُ مَا لَمْ يَنْهَهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، فَإِذَا نَهَاهُ انْتَهَى.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ عَلَى تَحْرِيمِ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالتَّرَحُّمِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلاً لِلْمَغْفِرَةِ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ

---

(١) القرطبي/ تفسيره (٦/ ٢٤٤).

لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التَّوْبَةُ:٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التَّوْبَةُ:٨٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَةُ: ١١٤].

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: فِي الْحَدِيثِ تَحْذِيرٌ مِنَ التَّعَصُّبِ لِدِينِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ إِذَا كَانَ يُخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَإِنَّ الَّذِي حَمَلَ أَبَا طَالِبٍ عَلَى مَا وَقَعَ فِيهِ هُوَ التَّعَصُّبُ لِدِينِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِسُوءِ الْخَاتِمَةِ- وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، فَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ مِنْ هَذَا.

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَقْبَلَ الْحَقَّ وَلَوْ خَالَفَ مَا عَلَيْهِ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ، أَمَّا إِذَا كَانَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ عَلَى حَقٍّ، فَاتِّبَاعُهُمْ حَقٌّ، قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَبِيِّهِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يُوسُفُ:٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٣٣]، فَاتِّبَاعُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ عَلَى الْحَقِّ مَشْرُوعٌ[(١)].

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالذَّاتِ مِنْ عَقْدِ هَذَا الْبَابِ، وَهِيَ: الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يتَعَلَّقُونَ بِالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَيَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَمْلِكْ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الْهِدَايَةَ فَغَيْرُهُ لَا يَمْلِكُهَا لِأَحَدٍ بِالْأَوْلَى[(٢)].

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: فِي عَدَمِ إِيمَانِهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ آمَنَ مَا تَمَكَّنَ مِنَ الدِّفَاعِ الَّذِي حَصَلَ مِنْهُ لِلرَّسُولِ ﷺ، إِذْ لَوْ آمَنَ لَكَانَ هُوَ مَحَلَّ إِيذَاءٍ لِلْمُشْرِكِينَ، لَكِنْ لَمَّا بَقِيَ عَلَى مِلَّتِهِمْ كَانُوا يَحْتَرِمُونَهُ بَعْضَ الاحْتِرَامِ، فَكَانَ فِي بَقَائِهِ عَلَى الْكُفْرِ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ، وَإِلَّا مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْحِمَايَةَ.

---

(١) الفوزان/ إعانة المستفيد(١/ ٢٦١).

(٢) الفوزان/ إعانة المستفيد(١/ ٢٦٢).

وَهَذَا الرَّجُلُ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ دِفَاعِهِ عَنْهُ، وَلِهَذَا أَذِنَ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ مَعَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْفَعَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَّا هَذَا الرَّجُلَ؛ لِمَا لَهُ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ حِمَايَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ مَا نَفَعَتْهُ نَفْعاً كَامِلاً وَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ، إِنَّمَا نَفَعَتْهُ أَنَّهُ كَانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ [الْقَصَص: ٥٦] الْآيَةَ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**﴾ [التَّوْبَةُ:١١٣] الْآيَةَ.

الثَّالِثَةُ: وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْكُبْرَى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ ﷺ: (**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**) بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ قَالَ لِلرَّجُلِ: (**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**) فَقَبَّحَ اللهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ.

الْخَامِسَةُ: جِدُّهُ ﷺ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

السَّادِسَةُ: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَسْلَافِهِ.

السَّابِعَةُ: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ.

الثَّامِنَةُ: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

التَّاسِعَةُ: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

الْعَاشِرَةُ: الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ؛ لِاسْتِدْلَالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الشَّاهِدُ بِكَوْنِ الْأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا نَفَعَتْهُ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ؛ لِأَنَّ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكْرِيرِهِ؛ فَلِأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمْ اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.

الْبَابُ (١٨)

مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

الْغُلُوُّ مَذْمُومٌ كُلُّهُ؛ لِأَنَّهُ مُجَاوَزَةٌ، وَارْتِفَاعٌ عَلَى طَرِيقَةِ الشَّرْعِ بِقَصْدِ الْقُرْبَةِ سَوَاءٌ كَانَ بِإِحْدَاثِ أَمْرٍ غَيْرِ حُكْمِ الشَّرْعِ، أَوْ بِتَرْكِ حُكْمِ الشَّرْعِ، أَوْ بِإِحْدَاثِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْهُ، إِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مُجَرَّداً عَنِ الدَّلِيلِ، أَوْ قَامَ فِيهِ دَلِيلٌ يَمْنَعُهُ.

وَعَلَى ضَوْءِ ذَلِكَ يَكُونُ الْغُلُوُّ مِنَ الْكَبَائِرِ الْمُهْلِكَةِ؛ لِأَنَّهُ تَعَدٍّ عَلَى حَقِّ اللهِ وَحُدُودِ شَرْعِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾[النِّسَاء:١٧١].

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **(لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ)**[١].

مِنْ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ الْمَنْعُ مِنَ التَّشَدُّدِ بِزِيَادَةِ فِعْلٍ أَوْ بِتَرْكِهِ، وَإِلْزَامِ النَّفْسِ بِهِ بِعَهْدٍ أَوْ بِنَذْرٍ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ مِنَ الشَّرْعِ، فَيَصِيرُ بِنَذْرِهِ لَازِماً، وَيَكُونُ الْمَرْءُ –وَالْحَالَةُ هَذِهِ– قَدْ ضَيَّعَ الْحُقُوقَ الْوَاجِبَةَ عَلَيْهِ تُجَاهَ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، فَتَنْفِرُ مِنْهُ الطِّبَاعُ، وَيَبْقَى وَحِيداً لَا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ.

وَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **(إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى)**[٢].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي يَضِلُّ رُفْقَتَهُ فِي الصَّحْرَاءِ الْمُهْلِكَةِ، وَتَمُوتُ دَابَّتُهُ، يَفْقِدُ أَسْبَابَ السَّلَامَةِ، وَتَكْتَنِفُهُ أَسْبَابُ الْهَلَكَةِ، وَذَلِكَ مَثَلُ الْغَالِي، فَإِنَّهُ مُهْلِكٌ نَفْسَهُ، بِحِرْمَانِهَا يُسْرَ الِاعْتِدَالِ، وَخَيْرَ الْوَسَطِ، وَرِعَايَةَ الْحُقُوقِ، وَطُولَ الْعُمُرِ، وَعِظَمَ الْأَجْرِ.

وَعَنْ سَلِيمِ بنِ عَامِرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ ﷺ يَقُولُ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ فَقَالَ: **(إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ)** فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَقَالَ: أَفِي كُلِّ عَامٍ؟ قَالَ: فَغَلِقَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأُسْكِتَ وَاسْتُغْضِبَ وَمَكَثَ طَوِيلاً، ثُمَّ تَكَلَّمَ فَقَالَ: **(مَنْ هَذَا السَّائِلُ؟)** فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: أَنَا ذَا. فَقَالَ: **(وَيْحَكَ، مَاذَا يُؤَمِّنُكَ أَنْ أَقُولَ نَعَمْ، وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَتَرَكْتُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ لَكَفَرْتُمْ، أَلَا إِنَّهُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَئِمَّةُ الْحَرَجِ،**

---

(١)حسن: أخرجه أبو داود/سننه(٤٩٠٤)(٤/٢٠٩١).

(٢)ضعيف، أخرجه: البيهقي/سننه الكبرى (٤٥٢١) (٤/٢٠٩١).

وَاللهِ لَوْ أَنِّي أَحْلَلْتُ لَكُمْ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ مَوْضِعَ مِثْلِ خُفِّ بَعِيرٍ لَوَقَعْتُمْ فِيهِ)، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ)(١).

قُلْتُ: وَحَسْبُكَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: (**وَاللهِ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَوْ وَجَبَتْ لَتَرَكْتُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ لَكَفَرْتُمْ**) وَاعِظًا فِي التَّحْذِيرِ مِنْ شَرِّ الْغُلُوِّ وَخطَرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَبِيلٌ إِلَى دُرُوسِ الْإِسْلَامِ، وَالْوُقُوعِ فِي الْكُفْرِ.

وَأَقْبَحُ الْغُلُوِّ مَا كَانَ فِي التَّوْحِيدِ، وَلَقَدْ أَتَى الْمُصَنِّفُ بِهَذَا الْبَابِ حَذَرًا مِنَ الْجُنُوحِ إِلَى الْغُلُوِّ فِي التَّوْحِيدِ، سِيَّمَا فِي إِطْرَاءِ الصَّالِحِينَ وَتَعْظِيمِهِمْ، فَقَالَ: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ)، وَذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْبَابِ جُمْلَةً مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَقَالَ:

وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ١٧١].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَنْهَى تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْإِطْرَاءِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ تَجَاوَزُوا حَدَّ التَّصْدِيقِ بِعِيسَى، حَتَّى رَفَعُوهُ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَنَقَلُوهُ مِنْ حَيِّزِ النُّبُوَّةِ إِلَى أَنِ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللهِ يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَعْبُدُونَهُ، بَلْ قَدْ غَلَوْا فِي أَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ، مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ، فادَّعَوْا فِيهِمُ الْعِصْمَةَ وَاتَّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ، سَوَاءٌ كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا أَوْ ضَلَالًا أَوْ رَشَادًا، أَوْ صَحِيحًا أَوْ كَذِبًا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣١](٢).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أَيْ: لَا تُجَاوِزُوا الْحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلَا تُطْروا مَنْ أُمِرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ فَتُبَالِغُوا فِيهِ، حَتَّى تُخْرِجُوهُ عَنْ حَيِّزِ النُّبُوَّةِ إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَجَعَلْتُمُوهُ إِلَهًا

---

(١) حسن: أخرجه: الطبراني/معجمه الكبير (٨/١٥٩) (٧٦٧١).

(٢)ابن كثير/تفسيره(٢/٤٧٧).

مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِاقْتِدَائِكُمْ بِشُيُوخِ الضَّلَالِ، الَّذِينَ هُمْ سَلَفُكُمْ مِمَّنْ ضَلَّ قَدِيمًا[1].

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نَهَاهُمْ عَنِ الْغُلُوِّ فِي دِينِهِمْ وَهُوَ الْمُجَاوَزَةُ لِلْحَدِّ كَإِثْبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ لِعِيسَى، كَمَا يَقُولُهُ النَّصَارَى، أَوْ حَطِّهِ عَنْ مَرْتَبَتِهِ الْعَلِيَّةِ كَمَا يَقُولُهُ الْيَهُودُ، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنَ الْغُلُوِّ الْمَذْمُومِ وَسُلُوكِ طَرِيقَةِ الْإِفْرَاطِ أَوِ التَّفْرِيطِ وَاخْتِيَارِهِمَا عَلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ[2].

وَقَالَ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نَهَى عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ مَفَاسِدَ كَثِيرَةً؛ مِنْهَا:

١ .أَنَّهُ تَنْزِيلٌ لِلْمَغْلُوِّ فِيهِ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ إِنْ كَانَ مَدْحَاً، وَتَحْتَهَا إِنْ كَانَ قَدْحَاً.

٢ .أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى عِبَادَةِ هَذَا الْمَغْلُوِّ فِيهِ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ مِنْ أَهْلِ الْغُلُوِّ.

٣ .أَنَّهُ يَصُدُّ عَنْ تَعْظِيمِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ إِمَّا أَنْ تَنْشَغِلَ بِالْبَاطِلِ أَوْ بِالْحَقِّ، فَإِذَا انْشَغَلَتْ بِالْغُلُوِّ بِهَذَا الْمَخْلُوقِ وَإِطْرَائِهِ وَتَعْظِيمِهِ؛ تَعَلَّقَتْ بِهِ وَنَسِيَتْ مَا يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ حُقُوقٍ.

٤ .أَنَّ الْمَغْلُوَّ فِيهِ إِنْ كَانَ مَوْجُوداً؛ فَإِنَّهُ يَزْهُو بِنَفْسِهِ، وَيَتَعَاظَمُ وَيُعْجَبُ بِهَا، وَهَذِهِ مَفْسَدَةٌ تُفْسِدُ الْمَغْلُوَّ فِيهِ إِنْ كَانَتْ مَدْحَاً، وَتُوجِبُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَقِيَامَ الْحُرُوبِ وَالْبَلَاءِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، وَإِنْ كَانَتْ قَدْحَاً....

وَخَطَرُ الْغُلُوِّ عَظِيمٌ، وَنَتَائِجُهُ وَخِيمَةٌ؛ فَالْوَاجِبُ تَنْزِيلُ الصَّالِحِينَ مَنَازِلَهُمْ؛ فَلَا يَسْتَوِي الصَّالِحُ وَالْفَاسِدُ، بَلْ يُنَزَّلُ كُلٌّ مَنْزِلَتَهُ، وَلَكِنْ لَا نَتَجَاوَزُ بِهِ الْمَنْزِلَةَ فَنَغْلُو فِيهِ؛ فَدِينُ اللهِ وَسَطٌ لَا يُعْطِي الْإِنْسَانَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَحِقُّ، وَلَا يَسْلُبُهُ مَا يَسْتَحِقُّ، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ[3].

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾[نُوح:٢٣].

قَالَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا؛ أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَاباً، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ،

(١)ابن كثير/تفسيره(٣/ ١٥٩).

(٢)الشوكاني/فتح القدير(٢/ ٧٥).

(٣) ابن عثيمين/ مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٣٥٨).

حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ؛ عُبِدَتْ[1].

وَيَحْسُنُ أَنْ نَأْتِيَ بِالْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا وَالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، فَإِنَّهُ أَعْوَنُ عَلَى بَيَانِ كَمَالِ الْمَعْنَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ، وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[نُوحٍ:٢١- ٢٤].

أَيْ: "أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ شَكَى مَعْصِيَةَ قَوْمِهِ لله: يَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُمْ لَمْ يُجِيبُوا دَعْوَتِي، وَإِنَّ قَوْمِي اتَّبَعُوا كُبَرَاءَهُمْ وَسَادَاتِهِمْ الَّذِينَ لَمْ تَزِدْهُمْ كَثْرَةُ الْمَالِ وَالْوَلَدِ إِلَّا طُغْيَانًا وَفَسَادًا، فَانْتَهَوا إِلَى خَسَارٍ فَوْقَ الْخَسَارِ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ بِكُفْرِهِمْ، فَتَحَمَّلُوا إِثْمَ ضَلَالِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِثْمَ الْأَعْمَالِ الَّتِي أَضَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ.

وَاحْتَالَ الرُّؤَسَاءُ وَالْقَادَةُ احْتِيَالًا كَبِيرًا عَظِيمًا، بِتَحْرِيشِ السَّفَلَةِ عَلَى أَذَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَدِّ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُ.

وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْقَادَةُ لِأَتْبَاعِهِمْ: لَا تَتْرُكُنَّ عِبَادَةَ آلِهَتِكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَلَا تَتْرُكُنَّ أَعْظَمَ الْأَصْنَامِ الْخَمْسَةِ عِنْدَكُمْ: وَدًّا، وَلَا سُوَاعًا، وَلَا يَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرًا، وَقَدْ أَضَلَّ كُبَرَاءُ قَوْمِ نُوحٍ إِضْلَالًا كَثِيرًا بِتَأْثِيرِهِمْ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، وَهَدَّدُوهُمْ بِالرَّجْمِ، وَلَا تَزِدِ -يَا رَبَّنَا- هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ الَّذِي يَوَدُّونَ قَتْلَنَا لِلتَّخَلُّصِ مِنَّا إِلَّا هَلَاكًا"[2].

وَلَفْظُ الْأَثَرِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٩٢٠)(٦/١٦٠).

(٢) مجد مكي/ تفسيره (ص٥٧١).

إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»[1].

وَرَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِإِسْنَادِهِ: عَنْ مُحَمَّدِ بنِ قَيْسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نُوحُ:٢٣] قَالَ: كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ، فَلَمَّا مَاتُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ فَعَبَدُوهُمْ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَقَالَ آخَرُونَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ أَصْنَامِ قَوْمِ نُوحٍ[2].

وَرَوَى ابنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عِرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه: أَنَّهُمْ كَانُوا أَوْلَادَ آدَمَ لِصُلْبِهِ، وَكَانَ وَدٌّ أَكْبَرَهُمْ وَأَبَرَّهُمْ بِهِ، **فَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه قَالَ:** اشْتَكَى آدَمُ عليه السلام وَعِنْدَهُ بَنُوهُ: وَدٌّ وَيَغُوثُ وَسُوَاعٌ وَنَسْرٌ، وَكَانَ وَدٌّ أَكْبَرَهُمْ وَأَبَرَّهُمْ بِهِ[3].

وَعَنِ ابنِ الْكَلْبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَانَ لِعَمْرِو بنِ رَبِيعَةَ رئي مِنَ الْجِنِّ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: أَجِبْ أَبَا ثُمَامَةَ وَادْخُلْ بِلَا مَلَامَةٍ، ثُمَّ ائتِ سَيْفَ جُدَّةَ تَجِدْ بِهَا أَصْنَامًا مُعَدَّةً، ثُمَّ أَوْرِدْهَا تِهَامَةَ وَلَا تَهَبْ، ثُمَّ ادْعُ الْعَرَبَ إِلَى عِبَادَتِهَا تُجَبْ. قَالَ: فَأَتَى عَمْرٌو سَاحِلَ جُدَّةَ فَوَجَدَ بِهَا وُدًّا وَسُوَاعًا وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وَهِيَ الْأَصْنَامُ الَّتِي عُبِدَتْ عَلَى عَهْدِ نُوحٍ وَإِدْرِيسَ، ثُمَّ إِنَّ الطُّوفَانَ طَرَحَهَا هُنَاكَ فَسَقَى عَلَيْهَا الرَّمْلَ فَاسْتَثَارَهَا عَمْرٌو، وَخَرَجَ بِهَا إِلَى تِهَامَةَ، وَحَضَرَ الْمَوْسِمَ، فَدَعَا إِلَى عِبَادَتِهَا فَأُجِيبَ. **قَالَ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:** وَعَمْرُو بنُ رَبِيعَةَ هُوَ عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ[4].

وَقَالَ الشَّيْخُ سَلَيمَانُ آلِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهُوَ -أَيْ: عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ- سَيِّدُ خُزَاعَةَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَغَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام. وَكَانَتْ الْعَرَبُ قَبْلَهُ عَلَى دِينِ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، حَتَّى نَشَأَ فِيهِمْ عَمْرٌو فَأَحْدَثَ الشِّرْكَ، كَمَا رَوَى ابنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٤٩٢٠) (٦/ ١٦٠).

(٢) الطبري/تفسيره (٢٣/ ٣٠٣).

(٣) أخرجه: ابن أبي حاتم/ تفسيره (١٨٩٩٦) (١٠/ ٣٣٧٥).

(٤) أخرجه: الفاكهي/ أخبار مكة (٦٨) (٥/ ١٣٩).

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَكْثَمَ بنِ الجَوْنِ: **(يَا أَكْثَمُ، رَأَيْتُ عَمْرَو بنَ لُحَيِّ بنِ قَمَعَةَ بنِ خِنْدِفٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ، وَلَا بِهِ مِنْكَ)**، فَقَالَ أَكْثَمُ: أَخْشَى أَنْ يَضُرَّنِي شَبَهُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(لَا، إِنَّكَ مُؤْمِنٌ، وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ، وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَحَمَى الْحَامِيَ)**[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(رَأَيْتُ عَمْرَو بنَ عَامِرٍ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ)**[2][3].

قُلْتُ: لَمْ يَذْكُرِ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَثَرَ ابنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اعْتِبَاطًا، بَلْ ذَكَرَهُ؛ لِيَكُونَ مِثَالًا وَاعِظًا مِنْ أَمْثِلَةِ الْغُلُوِّ الَّتِي دَمَغَتْ مَعَانِي التَّوْحِيدِ بِالشِّرْكِ وَدَرَسَتْ الْإِيمَانَ بِالْكُفْرِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّيْطَانَ لَعِبَ بِعُقُولِ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بِسَبِيلِ النُّصْحِ الْكَاذِبِ وَالْوَعْظِ الْمَاكِرِ، حَيْثُ ذَكَرَ لِلنَّاسِ أَسْمَاءَ الصُّلَحَاءِ وَالْأَتْقِيَاءِ مِنَ الْآبَاءِ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَخْلَصُوا وَعَمِلُوا وَجَدُّوا، فَتَمَيَّزُوا بَيْنَ النَّاسِ بِحُسْنِ السِّيرَةِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الطَّاعَةِ، وَكَانَ لَهُمْ حُضُورٌ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذِكْرٌ حَسَنٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَامَ الشَّيْطَانُ فِي النَّاسِ بِلِسَانِ النَّاصِحِ الْأَمِينِ وَالدَّاعِي الْوَفِيِّ، يَقُولُ فِي النَّاسِ: هَؤُلَاءِ آبَاؤُكُمْ الَّذِينَ تَمَيَّزُوا فِيكُمْ صَلَاحًا قَدْ هَلَكُوا، فَلَوْ أَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ لَهُمُ التَّصَاوِيرَ وَالنُّصُبَ، فَإِنَّهُ أَعْوَنُ عَلَى بَقَاءِ حُضُورِهِمْ فِي الْقَلْبِ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي الطَّاعَةِ، فَيَحْمِلُكُمْ ذَلِكَ عَلَى حُسْنِ التَّأَسِّي بِهِمْ وَالِاقْتِدَاءِ بِفِعَالِهِمْ، فَقَبِلُوا مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَحَسَبُوهُ نُصْحًا نَافِعًا، وَمَضَوا عَلَى ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُ ابنِ عَبَّاسٍ حِكَايَةً عَنِ الشَّيْطَانِ **"أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا"**.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **"فَلَمْ تُعْبَدْ"** لِأَنَّ النَّاسَ مَا زَالُوا عَلَى فَهْمٍ لِحَقِيقَةِ هَذِهِ التَّصَاوِيرِ، وَحَقِيقَةِ مَنْ اتُّخِذَتْ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ صَنَعُوهَا ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا تُذَكِّرُهُمْ نَهَمَ آبَائِهِمْ الصَّالِحِينَ فِي الْعِبَادَةِ، فَمَنَعَهُمْ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَقَعُوا فِي الشِّرْكِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّهُمْ صَنَعُوا أَسْبَابَهُ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

قَوْلُهُ: **"حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ"** أَي: لَمَّا مَاتَ شُهَدَاءُ ذَلِكَ الْوَاقِعِ،

---

(١) حسن، أخرجه: الطبري/تفسيره (٩/ ٢٧).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٤٦٢٣) (٦/ ٥٤).

(٣) سليمان آل الشيخ/ تيسير العزيز الحميد (ص ٢٥٦-٢٥٧).

وَقَامَ الْأَبْنَاءُ وَالْأَحْفَادُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَالتَّصَاوِيرُ وَالْأَنْصَابُ حَاضِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَمْ يَشُكُّوا أَنَّ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ مِنْ تُرَاثِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَأَنَّ حُضُورَهَا لَا يَتَنَافَى مَعَ جَوْهَرِ الدِّينِ، وَقَدْ حَصَّلَ ذَلِكَ لَهُمْ ثِقَةً بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، فَلَاحَتْ عِنْدَئِذٍ فُرْصَةُ الشَّيْطَانِ؛ لِيَسْتَزِلَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ سِيَّمَا وَقَدْ أَمِنَ أَنَّ شُهَدَاءَ الْوَاقِعِ قَدْ هَلَكُوا، وَاطْمَأَنَّ مِنْ نُضُوبِ الْعِلْمِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْأَحْدَاثِ وَفُشُوِّ الْجَهْلِ فِيهِمْ، وَأَيْقَنَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَذَبَهُمْ بِثَوْبِ الْوَعْظِ وَجَدَ عِنْدَهُمْ التَّصْدِيقَ وَالْقَبُولَ، فَبَادَرَ يَهْتِفُ فِيهِمْ: إِنَّ آبَاءَكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَنْصَابَ وَالتَّصَاوِيرَ، وَكَانُوا يَجِدُونَ بَرَكَةَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ النِّعَمِ، فَقَبِلَ الْحُدَثَاءُ مِنْهُ، وَعَبَدُوا تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ شِرْكٍ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ ابنُ الْقَيِّمِ: " قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ "(١).

ثُمَّ أَوْرَدَ الْمُصَنِّفُ بَعْدَ ذَلِكَ جُمْلَةً مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي خَطَرِ الْغُلُوِّ، وَقَبِيحِ أَثَرِهِ عَلَى الدِّينِ، بَدَأَهَا بِحَدِيثِ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ:

وَعَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **(لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ)** أَخْرَجَاهُ(٢).

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(لَا تُطْرُونِي)** الْإِطْرَاءُ فِي اللُّغَةِ هُوَ: الْإِفْرَاطُ فِي الْمَدْحِ. وَالْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا الْمَدْحُ الْبَاطِلُ(٣)؛ لِلْقَرِينَةِ الَّتِي بَعْدَ ذَلِكَ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى بَرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَظِّ النَّفْسِ وَالْهَوَى.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: **(لَا تُطْرُونِي)** نَهْيٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ، وَهُوَ الْحَظْرُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ عَلَى النَّاسِ الْمُبَالَغَةَ فِي مَدْحِهِ.

---

(١) ابن القيم/إغاثة اللهفان(١/ ١٨٤).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٤٤٥)(٤/١٦٧)، ولعل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اشتبه عليه أن الحديث في الصحيحين.

(٣) ابن الجوزي/ كشف المشكل(١/ ٦٥).

وَفِي النَّهْيِ اعْتِبَارٌ لِلْمَآلِ، وَلِأَصْلِ سَدِّ الذَّرَائِعِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْمُبَالَغَةُ فِي الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ تَقُودُ إِلَى التَّعْظِيمِ الْمَذْمُومِ، وَالَّذِي قَدْ يُوقِعُ أَحْيَانًا فِي الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ، وَهُوَ نَهْيٌ عَنْ ذَرِيعَةِ الْمُنْكَرِ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: (**كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ**) إِخْبَارٌ عَمَّا صَارَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى فِي غُلُوِّهِمْ بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا بَالَغُوا فِي تَعْظِيمِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِذَلِكَ إِلَى مُعْتَقَدَاتٍ فَاسِدَةٍ، جَاءَ خَبَرُهَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [الْمَائِدَةُ:٧٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الْمَائِدَةُ:١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ [التَّوْبَةُ:٣٠].

الرَّابِعَةُ: فَإِنْ قِيلَ: وَمَا عَلِمْنَا أَنَّ أَحَدًا ادَّعَى فِي رَسُولِ اللهِ مَا ادَّعَى فِي عِيسَى.

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُمْ بَالَغُوا فِي تَعْظِيمِهِ، حَتَّى قَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُ رِجَالًا بِالْيَمَنِ يَسْجُدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَفَلَا نَسْجُدُ لَكَ؟ فَقَالَ: "**لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**" فَنَهَاهُمْ عَمَّا عَسَاهُ يَبْلُغُ بِهِمُ الْعِبَادَةَ. ثُمَّ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ النَّهْيِ أَنْ يَكُونَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ قَدْ فُعِلَ، وَإِنَّمَا هُوَ مَنْعٌ مِنْ أَمْرٍ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ(١).

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَرَّفَهُمْ مَا خَشِيَ عَلَيْهِمْ جَهْلَهُ، وَالْغُلُوَّ فِيهِ كَمَا صَنَعَتْ النَّصَارَى فِي قَوْلِهِمْ لِعِيسَى أَنَّهُ ابنُ اللهِ ﷻ(٢).

قُلْتُ: وَلِئَلَّا يَقُودَهُمُ الْإِطْرَاءُ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى مَا صَارَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي كَانَ بِسَبَبِ ذلِكَ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: (**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ**) فِيهِ إِظْهَارٌ لِحَقِيقَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ عَبْدٌ وَلَيْسَ إِلَهًا، وَلَيْسَ ابنَ

---

(١) ابن الجوزي/ كشف المشكل (١/ ٦٥).

(٢) ابن بطال/ شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٦٠).

إِلَهٍ، كَمَا زَعَمَتْ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وَزَعَمَتْ الْيَهُودُ فِي الْعُزَيْرِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْعَبْدِ، فَإِنَّهُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَشْعُرُ بِالْجُوعِ وَالشِّبَعِ، وَيَشْعُرُ بِالدِّفْءِ وَالْبَرْدِ، وَبِالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَيَنَامُ وَيَقُومُ وَيَصُومُ وَيُفْطِرُ وَيَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَيَرِدُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ، فَلَا تَغِبْ عَنْكُمْ حَقِيقَةُ أَمْرِهِ ﷺ.

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: (**فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**) أَمْرٌ بِالِاعْتِقَادِ وَالْإِقْرَارِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَبْدُ اللهِ الْخَاضِعُ لِعَظَمَتِهِ، وَالْمُنْقَادُ لِأَمْرِهِ، وَالْمُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَالْمُعَظِّمُ لِشَعَائِرِهِ، وَالْمُحَافِظُ عَلَى فَرَائِضِهِ، وَالْوَقَّافُ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَأَنَّهُ نَبِيُّهُ وَرَسُولُهُ، يُخْبِرُ النَّاسَ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، وَيُبَلِّغُهُمْ رِسَالَةَ اللهِ تَعَالَى، وَيُعَلِّمُهُمْ أَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَيُذَكِّرُهُمْ بِحَقِّهِ عَلَيْهِمْ.

وَالْأَمْرُ بِذَلِكَ حَقِيقَةٌ فِي الْوُجُوبِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَحَدٍ جُحُودَهُ أَوْ مُجَاوَزَتَهُ.

وَقَدْ أَتَى بِهِ عَلَى وَجْهِ الِاخْتِصَارِ، وَنَصُّهُ فِي الْمُسْنَدِ عِنْدَ أَحْمَدَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ: (**هَاتِ الْقُطْ لِي**) فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِهِ، فَقَالَ: (**بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ**) مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ بِيَدِهِ - فَأَشَارَ يَحْيَى أَنَّهُ رَفَعَهَا - وَقَالَ: (**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ**)(١).

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَدَاةَ يَوْمِ النَّحْرِ: (**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**)(٢).

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: (**إِيَّاكُمْ**) أَدَاةُ تَحْذِيرٍ وَتَخْوِيفٍ، وَتُسْتَعْمَلُ غَالِبًا فِي الشَّرِّ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: (**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**) تَحْذِيرٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِأُمَّتِهِ مِنَ الْغُلُوِّ؛ فَإِنَّهُ عَظِيمُ الْخَطَرِ عَلَى الدِّينِ وَالنَّفْسِ، وَالْغُلُوُّ فِي الْحَدِيثِ: اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ أَفْرَادَ الْمَاهِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْعَوَارِضِ، فَيَشْمَلُ الْغُلُوَّ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ، وَالْخَطَرُ فِيهَا مُتَفَاوِتٌ تَفَاوُتًا طَرْدِيًّا مَعَ رُتْبَةِ مَوْضُوعِهِ وَمَحِلِّهِ.

---

(١) أخرجه: أحمد/ مسنده (٣٢٤٨)(٥/ ٢٩٨).

(٢) صحيح، أخرجه: النسائي/سننه(٣٠٥٧)(٥/٢٦٨).

الثَّالِثَةُ: يُسْتَفَادُ مِنْ سَبَبِ إِيرَادِ الْحَدِيثِ أَنَّ الْغُلُوَّ الْمُحَذَّرَ مِنْهُ مُتَعَلِّقٌ بِالدِّينِ، يُؤَكِّدُهُ مَا جَاءَ فِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ: **(وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ)**[1]؛ لِأَنَّهُ يُهَدِّدُ أَصْلَ الْإِيمَانِ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّصَارَى لَمَّا غَالُوا بِعِيسَى عليه السلام صَارُوا كُفَّارًا بِذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: **(إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ)** عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْغُلُوِّ، فِي الاعْتِقَادِ وَالْأَعْمَالِ[2].

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(فَإِنَّمَا)** أَدَاةُ حَصْرٍ تَحْصُرُ الصِّفَةَ عَلَى الْمَوْصُوفِ، وَالْمَوْصُوفُ هُنَا الْهَلَاكُ، وَالصِّفَةُ هِيَ الْغُلُوُّ، وَالْمَعْنَى: مَا حَصَلَ الْهَلَاكُ إِلَّا بِالْغُلُوِّ.

الْخَامِسَةُ: فِيهِ بَيَانُ خَطَرِ الْغُلُوِّ، وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَلَاكِ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ ذِكْرَهُ هَلَاكَ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ بِالْغُلُوِّ إِثْرَ تَحْذِيرِهِ أُمَّتَهُ مِنْهُ أَوْقَعُ فِي التَّرْكِ، وَأَشَدُّ فِي التَّحْذِيرِ، وَمَثَلُهُ: أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ لِمُحِبِّيهِ: احْذَرُوا الْغُلُوَّ، فَدُونَكُمُ الصَّرْعَى وَالْهَلْكَى مِنْهُ، فَانْظُرُوا إِلَيْهِمْ، وَاعْتَبِرُوا مِمَّا حَلَّ بِهِمْ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)** قَالَهَا ثَلَاثًا[3].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)** جَمْعُ مُتَنَطِّعٍ، وَهُوَ الْمُتَعَمِّقُ الْغَالِي، **قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:** الْمُتَنَطِّعُونَ: أَيِ الْمُتَعَمِّقُونَ الْغَالُونَ الْمُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ[4].

وَقَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ رَحِمَهُ اللَّهُ: هُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ الْغَالُونَ فِي الْكَلَامِ، الْمُتَكَلِّمُونَ بِأَقْصَى حُلُوقِهِمْ؛ مَأْخُوذٌ مِنَ النَّطْعِ، وَهُوَ الْغَارُ الْأَعْلَى مِنَ الْفَمِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ مُتَعَمِّقٍ قَوْلاً وَفِعْلاً.

وَقَالَ الْمُنَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: هُمُ الْغَالُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ بِحَيْثُ تَخْرُجُ عَنْ قَوَانِينِ الشَّرِيعَةِ،

---

(١) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده (١٨٥١)(٣/ ٣٥١).

(٢) ابن تيمية/ اقتضاء الصراط المستقيم(١/ ٣٢٨).

(٣) أخرجه: مسلم/صحيحه(٢٦٧٠)(٤/ ٢٠٥٥).

(٤) النووي/ شرحه على مسلم (١٦/ ٢٢٠).

وَيَسْتَرْسِلُ مَعَ الشَّيْطَانِ فِي الْوَسْوَسَةِ[1].

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: **(هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)** خَبَرٌ يُرادُ مِنْهُ الْإِنْشَاءُ، وَهُوَ تَحْرِيمُ الْغُلُوِّ وَالتَّشَدُّدِ عَلَى غَيْرِ هُدَى الشَّرْعِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءً، أَي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو عَلَى الْمُتَنَطِّعِينَ بِالْهَلَاكِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ التَّنَطُّعِ وَهُوَ وَصْفٌ إِثْرَ الْهَلَاكِ وَهُوَ حُكْمٌ يُفِيدُ بِدَلَالَةِ الْإِيمَاءِ أَنَّ التَّنَطُّعَ هُوَ سَبَبُ الْهَلَاكِ، وَقَدْ قَالَ الْأُصُولِيُّونَ فِي ذَلِكَ: تَرَتُّبُ الْحُكْمِ عَلَى الْمُشْتَقِّ يُؤْذِنُ بِعِلِّيَّةِ مَا مِنْهُ الِاشْتِقَاقُ.

الرَّابِعَةُ: إِفْرَادُهُ التَّنَطُّعَ إِثْرَ الْهَلَاكِ فِيهِ مُبَالَغَةٌ تَقْضِي أَنَّ أَعْظَمَ الْأَسْبَابِ فَتْكًا فِي الْأُمَمِ وَالْأَفْرَادِ وَأَسْرَعَ فِي هَلَاكِهَا هُوَ الْغُلُوُّ وَالتَّشَدُّدُ وَإِلَّا فَمَعْلُومٌ لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنَّ أَسْبَابَ الْهَلَاكِ عَدِيدَةٌ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ تَكْرَارَ النَّبِيِّ ﷺ ذِكْرَ الْحَدِيثِ فِيهِ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى الزَّجْرِ وَالتَّخْفِيفِ، وَإِحْكَامِ النُّفْرَةِ مِنَ التَّنَطُّعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ وَبَابَيْنِ بَعْدَهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةَ الْإِسْلَامِ، وَرَأَى مِنْ قُدْرَةِ اللهِ، وَتَقْلِيبِهِ الْقُلُوبَ الْعَجَبَ.

الثَّانِيَةُ: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَنَّهُ بِشُبْهَةِ الصَّالِحِينَ.

الثَّالِثَةُ: أَوَّلُ شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ.

الرَّابِعَةُ: سَبَبُ قَبُولِ الْبِدَعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطَرِ تَرُدُّهَا.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، فَالْأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ، وَالثَّانِي: فِعْلُ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا، فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

السَّادِسَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

السَّابِعَةُ: جِبِلَّةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ، وَالْبَاطِلُ يَزِيدُ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ فِيهَا شَاهِدًا لِمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَةَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

---

(١) المناوي/ فيض القدير (٦/٣٥٥).

التَّاسِعَةُ: مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَؤُولُ إِلَيْهِ الْبِدْعَةُ، وَلَوْ حَسُنَ قَصْدُ الْفَاعِلِ.

الْعَاشِرَةُ: مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ، وَمَعْرِفَةُ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: مَضَرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَالْحِكْمَةِ فِي إِزَالَتِهَا.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهَا.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: وَهِيَ أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ: قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَى الْكَلَامِ، وَكَوْنُ اللهِ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ، حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ نَهْيَ اللهِ وَرَسُولِهِ عَنْهُ هُوَ الْكُفْرُ الْمُبِيحُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: ظَنُّهُمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الْبَيَانُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ...) إِلَى آخِرِهِ. فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَى مَنْ بَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ الْمُتَنَطِّعِينَ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَ الْعِلْمُ، فَفِيهَا مَعْرِفَةُ قَدْرِ وُجُودِهِ، وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ.

الْعِشْرُونَ: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ الْعِلْمِ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ.

الْبَابُ (١٩)

مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟

هَذَا الْبَابُ مُكَمِّلٌ لِلْبَابِ الَّذِي سَبَقَهُ، وَالَّذِي تَضَمَّنَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي الصَّالِحِينَ يَقُودُ إِلَى الشِّرْكِ الْمُنَاهِضِ لِأَصْلِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُتْبَعَ بِصُورَةٍ مُشْتَهِرَةٍ مِنْ صُوَرَ الْغُلُوِّ، وَهِيَ الْمُبَالَغَةُ فِي تَعْظِيمِ الْمَوْتَى، وَالدُّعَاءُ وَالذِّكْرُ وَالتِّلَاوَةُ وَالصَّدَقَةُ لَهُمْ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَ قُبُورِهِمْ، اعْتِقَادًا مِنَ الْغُلَاةِ أَنَّ ذَلِكَ أَرْضَى للهِ، وَأَسْرَعُ فِي الْقَبُولِ، وَأَعْظَمُ فِي الْأَجْرِ، وَمَا دَرَوْا أَنَّهُ مِنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ، وَأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ.

قَالَ ابنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَأَمَّا إِذَا قَصَدَ الرَّجُلُ الصَّلَاةَ عِنْدَ الْقُبُورِ مُتَبَرِّكًا بِالصَّلَاةِ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ، فَهَذَا عَيْنُ الْمُحَادَّةِ للهِ وَرَسُولِهِ، وَالْمُخَالَفَةِ لِدِينِهِ، وَابْتِدَاعِ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى مَا عَلِمُوهُ بِالاضْطِّرَارِ مِنْ دِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ عِنْدَ الْقُبُورِ مَنْهِيٌّ عَنْهَا، وَأَنَّهُ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَهَا مَسَاجِدَ"(١).

فَبَادَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي مَسِيرِهِ الْقَيِّمِ، وَقَرِيحَتِهِ الْمُتَبَصِّرَةِ، يُورِدُ جُمْلَةً مِنَ الْأَدِلَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِيهَا مِنَ التَّغْلِيظِ وَالزَّجْرِ مَا يَمْنَعُ مِنَ الْجُنُوحِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْجَاهِلَةِ، وَالذُّنُوبِ الْمُوبِقَةِ بَدَأَهَا بِمَا:

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ)**(٢).

فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ(٣).

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

---

(١) ابن القيم/ إغاثة اللهفان (١/ ١٨٥).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٣٤)(١/ ٩٥)، مسلم/صحيحه(٥٢٨)(١/ ٣٧٥).

(٣) ابن القيم/إغاثة اللهفان(١/ ١٨٤).

الْأُولَى: أَنَّ تَعْلِيقَ التَّصَاوِيرِ فِي دُورِ العِبَادَةِ مِنْ عَوَائِدِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّتِي أَفْضَتْ بِهِمْ إِلَى الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَيْتَ شِعْرِي لَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ حَذِرُوا مِنْ ذَلِكَ، وَجَنَّبُوا الْمَسَاجِدَ الْقُبُورَ وَتَعْلِيقَ التَّصَاوِيرِ؛ وَزَهِدُوا فِي عَوَائِدِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَوْقَفُوا هَذَا الْمَدَّ الشِّرْكِيَّ الْجَاهِلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ حَوَاضِرِ الْإِسْلَامِ وَبَوَادِيهِ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: (**أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ**) مَصْرُوفٌ إِلَى النَّصَارَى الَّذِينَ مَرَدُوا عَلَى الْجَهَالَةِ وَالِابْتِدَاعِ، وَعَطَّلُوا كِتَابَهُمْ الْإِنْجِيلَ مَا بَيْنَ مُحَرِّفٍ وَمُعَطِّلٍ، وَاسْتَحْدَثُوا أَنْوَاعًا مِنَ الْعِبَادَةِ أَغْرَاهُمْ بِهَا الشَّيْطَانُ، فَرَأَوْهَا حَسَنَةً، وَأَلْزَمُوا أَنْفُسَهُمْ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللهُ تَعَالَى، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَا اسْتَحْسَنُوهُ بِنَاءُ الْكَنَائِسِ، وَالْمَعَابِدِ، وَالْأَدْيِرَةِ عَلَى قُبُورِ الصَّالِحِينَ بِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ أَرْضَى للهِ، وَاتَّخَذُوا لَهُمُ التَّصَاوِيرَ بِقُصُودٍ شِرْكِيَّةٍ فَاسِدَةٍ.

وَقَوْلُهُ: (**أُولَئِكَ**) إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِإِشَارَةِ الْبَعِيدِ، تَنْبِيهًا إِلَى أَنَّهُمْ أَغْرَقُوا فِي الضَّلَالَةِ، وَأَخْطَأُوا سَبِيلَ الْهِدَايَةِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمْ يَبْنُونَ الْكَنَائِسَ عَلَى الصَّالِحِينَ لِلْبَرَكَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَيَتَّخِذُونَ لَهُمُ التَّصَاوِيرَ؛ لِتُذَكِّرَهُمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاحِ، فَكَانُوا بِذَلِكَ مِنَ الضَّالِّينَ؛ لِأَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَتَّى النَّبِيِّ الْخَاتَمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَدْ ابْتَعَثَهُمُ اللهُ جَمِيعًا بِالتَّوْحِيدِ حَقِيقَةً وَاحِدَةً ثَابِتَةً لَمْ تَتَغَيَّرْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَقَدْ جَاءَتْ أَخْبَارُ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الْأَنْبِيَاءُ:٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النَّحْلُ:٣٦].

وَأَنَّ الِاخْتِلَافَ قَدْ حَصَلَ فِي التَّشْرِيعِ مُرَاعَاةً لِمَصَالِحِهِمْ وَمَصَالِحِ أَقْوَامِهِمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [الْمَائِدَةُ: ٤٨]، وَعَلَيْهِ: فَإِنَّ مَنْ يُحْدِثُ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئًا رُدَّ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ٨٥].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ**

فَهُوَ رَدٌّ)[1].

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (**وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ**) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النِّيَّةَ الصَّالِحَةَ لَا تُسَوِّغُ الْعَمَلَ السَّيِّءَ، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا التَّصَاوِيرَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بِقَصْدِ الذِّكْرَى بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ جِدٍّ وَاجْتِهَادٍ فِي الْعِبَادَةِ، فَمَقَتَهُمُ اللهُ ﷻ، وَكَانُوا بِذَلِكَ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ فِعْلَهُمْ قَبِيحٌ فِي ذَاتِهِ، وَقَبِيحٌ فِي غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: (**أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ**) أَيْ: أَوْفَرُ النَّاسِ نَصِيبًا فِي الشَّرِّ؛ لِأَنَّ مَعْصِيَتَهُمْ شِرْكٌ، وَالشِّرْكُ أَقْبَحُ الذُّنُوبِ، وَأَكْبَرُهَا، فَهِيَ اعْتِدَاءٌ عَلَى حَقِّ اللهِ تَعَالَى؛ وَلِذَا فَإِنَّ كُلَّ الذُّنُوبِ سِوَى الشِّرْكِ يُرْجَى غَفْرُهَا إِلَّا هُوَ، وَقَدْ جَاءَتْ أَدِلَّةُ الشَّرْعِ فِي ذَمِّ الشِّرْكِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[النِّسَاءُ: ٤٨].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: (**الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**)[2].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ؓ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: (**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**). قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: (**وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**). قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: (**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**)[3].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ ؓ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**) ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (**الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**)، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ[4].

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: (**أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ**) ذَكَرَهُ إِثْرَ حَدِيثِهِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ، وَاتِّخَاذِ تَصَاوِيرِ الصَّالِحِينَ، لِلْبَرَكَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَهُوَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ مِنْ أَقْبَحِ

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(٢٦٩٧)(٣/ ١٨٤)، مسلم/صحيحه(١٧١٨)(٣/ ١٣٤٣).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٢٧٦٦) (٤/ ١٠).

(٣) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٤٤٧٧) (٦/ ١٨).

(٤) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٢٦٥٤) (٣/ ١٧٢).

الْمَعَاصِي، وَأَشَدِّ الْمَحْظُورَاتِ.

قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ مِثْلِ هَذَا الْفِعْلِ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلَائِلُ الشَّرِيعَةِ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ التَّصْوِيرِ وَالصُّوَرِ.

وَلَقَدْ أَبْعَدَ غَايَةَ الْبُعْدِ مَنْ قَالَ: إنَّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْكَرَاهَةِ، وَإِنَّ هَذَا التَّشْدِيدَ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، لِقُرْبِ عَهْدِ النَّاسِ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. وَهَذَا الزَّمَانُ حَيْثُ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ - لَا يُسَاوِيهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى. فَلَا يُسَاوِيهِ فِي هَذَا التَّشْدِيدِ - هَذَا أَوْ مَعْنَاهُ - وَهَذَا الْقَوْلُ عِنْدَنَا بَاطِلٌ قَطْعًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الْإِخْبَارُ عَنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ بِعَذَابِ الْمُصَوِّرِينَ. وَأَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ: (**أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**)(١) وَهَذِهِ عِلَّةٌ مُخَالِفَةٌ لِمَا قَالَهُ هَذَا الْقَائِلُ، وَقَدْ صُرِّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: (**الْمُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ**)(٢) وَهَذِهِ عِلَّةٌ عَامَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مُنَاسِبَةٌ لَا تَخُصُّ زَمَانًا دُونَ زَمَانٍ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَصَرَّفَ فِي النُّصُوصِ الْمُتَظَاهِرَةِ الْمُتَضَافِرَةِ بِمَعْنًى خَيَالِيٍّ. يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُرَادَ، مَعَ اقْتِضَاءِ اللَّفْظِ التَّعْلِيلَ بِغَيْرِهِ. وَهُوَ التَّشَبُّهُ بِخَلْقِ اللَّهِ" (٣).

السَّابِعَةُ: فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُصَوِّرِينَ هُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ فِعْلَهُمْ ذَرِيعَةٌ إِلَى الشِّرْكِ، وَأَنَّهُ مُضَاهَاةٌ للهِ فِي خَلْقِهِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: (**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً**)(٤).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (**إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**)(٥).

الثَّامِنَةُ: فِي الْحَدِيثِ اعْتِبَارٌ لِلْمَآلِ بِمَنْعِ الْوَسَائِلِ الْمُحَرَّمَةِ كَاتِّخَاذِ التَّصَاوِيرِ فِي الْمَسَاجِدِ؛ لِأَنَّهَا تَقُودُ إِلَى الشِّرْكِ الَّذِي هُوَ مَفْسَدَةٌ فِي الدِّينِ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إِنَّمَا صَوَّرَ أَوَائِلُهُمْ الصُّوَرَ لِيَسْتَأْنِسُوا بِرُؤْيَةِ تِلْكَ الصُّوَرِ، وَيَتَذَكَّرُوا أَفْعَالَهُمْ الصَّالِحَةَ، فَيَجْتَهِدُوا كَاجْتِهَادِهِمْ وَيَعْبُدُوا عِنْدَ قُبُورِهِمْ، ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٥٩٥١) (٧/ ١٦٧)، مسلم/ صحيحه (٢١٠٧)(٣/١٦٦٩).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٥٩٥٤) (٧/ ١٦٨)، مسلم/ صحيحه (٢١٠٧)(٣/١٦٦٦).

(٣) ابن دقيق العيد/ إحكام الأحكام(١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٤) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٥٩٥٣) (٧/ ١٦٧).

(٥) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٥٩٥١) (٧/ ١٦٧).

خُلُوفٌ جهلُوا مُرَادَهُمْ، وَوَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ أَسْلَافَكُمْ كَانُوا يعْبدُونَ هَذِه الصُّوَرَ وَيُعَظِّمُونَهَا فَعَبَدُوهَا، فَحَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ؛ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى ذَلِكَ، وَسَدًّا لِلذَّرَائِعِ فِي قَبْرِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ مِنَ الْأَمْرِ الْمُحْكَمِ الَّذِي لَا يُنْسَخُ بَعْدُ، وَلَمَّا احْتَاجَ الصَّحَابَةُ ﷺ، وَالتَّابِعُونَ إِلَى زِيَادَة مَسْجِدِهِ ﷺ بَنَوْا عَلَى الْقَبْرِ حِيطَانًا مُرْتَفِعَةً مُسْتَدِيرَةً صَمَّاءَ حَوْلَهُ لِئَلَّا تَصِلَ إِلَيْهِ الْعَوَامُ فَيُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ الْمَحْذُور، ثُمَّ بَنَوْا جِدَارَيْنِ بَيْنَ رُكْنَيْ الْقَبْرِ الشَّمَالِيِّ حَرَفُوهَا حَتَّى الْتَقَيَا حَتَّى لَا يَتَمَكَّنَ أَحَدٌ أَنْ يسْتَقْبِلَ الْقَبْرِ"[1].

التَّاسِعَةُ: أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ: **(وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ)** الصُّوَرُ: جَمْعٌ مُحَلًّى بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ الَّتِي تُفِيدُ الِاسْتِغْرَاق، فَشَمِلَ جَمِيعَ الصُّوَرِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَنْحُوتَةً، أَمْ مَرْسُومَةً، أَمْ ظِلِّيَّةً، فَإِنَّهَا حَرَامٌ كُلُّهَا؛ لِأَنَّهَا قُبْحٌ وَشَرٌّ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا مَا تَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ الصُّوَرِ الظِّلِّيَّةِ.

الْعَاشِرَةُ: قَوْلُ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ، فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ)** **فِتْنَةُ الْقُبُورِ:** مَنْشَؤُهَا الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ، فَقَدْ جَازُوا الْحَدَّ فِي حُبِّهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ، فَحَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى التَّبَرُّكِ بِقُبُورِهِمْ، وَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا، وَهِيَ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، تُصِيبُ قَلْبَ الدِّيْنِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَهَذِهِ الْعِلَّةُ هِيَ الَّتِي لِأَجْلِهَا نَهَى الشَّارِعُ عَنِ اتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ، وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْ كَثِيرًا مِنَ الْأُمَمِ إِمَّا فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ، أَوْ فِيمَا دُونَهُ مِنَ الشِّرْكِ، فَإِنَّ النُّفُوسَ قَدْ أَشْرَكَتْ بِتَمَاثِيلِ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ، وَتَمَاثِيلَ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا طَلَاسِمُ لِكَوَاكِبَ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الشِّرْكَ بِقَبْرِ الرَّجُلِ الَّذِي يُعْتَقَدُ صَلَاحُهُ أَقْرَبُ إِلَى النُّفُوسِ مِنَ الشِّرْكِ بِخَشَبَةٍ أَوْ حَجَرٍ. وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الشِّرْكِ يَتَضَرَّعُونَ عِنْدَهَا وَيَخْشَعُونَ وَيَخْضَعُونَ، وَيَعْبُدُونَ بِقُلُوبِهِمْ عِبَادَةً لَا يَفْعَلُونَهَا فِي بُيُوتِ اللهِ وَلَا وَقْتَ السَّحَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْجُدُ لَهَا، وَأَكْثَرُهُمْ يَرْجُونَ مِنْ بَرَكَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَهَا، وَالدُّعَاءِ مَا لَا يَرْجُونَهُ فِي الْمَسَاجِدِ، فَلِأَجْلِ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ حَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ مَادَّتَهَا حَتَّى نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ مُطْلَقًا، وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ الْمُصَلِّي بَرَكَةَ الْبُقْعَةِ بِصَلَاتِهِ، كَمَا يَقْصِدُ بِصَلَاتِهِ بَرَكَةَ الْمَسَاجِدِ. كَمَا نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ وَقْتَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا؛ لِأَنَّهَا أَوْقَاتٌ يَقْصِدُ الْمُشْرِكُونَ فِيهَا الصَّلَاةَ لِلشَّمْسِ، فَنَهَى أُمَّتَهُ عَنِ الصَّلَاةِ حِينَئِذٍ، وَإِنْ لَمْ يُقْصَدْ مَا قَصَدَهُ

---

(١) العيني/ عمدة القاري(٤/ ١٧٤).

الْمُشْرِكُونَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ"[1].

وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ: وَهِيَ فِتْنَةٌ قَدِيمَةٌ تَنْتَهِي إِلَى قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، حَيْثُ اتَّخَذُوا التَّمَاثِيلَ أَنْصَابًا عَظَّمُوهَا وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ.

وَلَهُمَا عَنْهَا رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ -وَهُوَ كَذَلِكَ-: **(لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)** يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلاَ ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. أَخْرَجَاهُ[2].

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: **(إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)**[3].

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ.

وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: **(خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا)**؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدْ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ؛ يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: **(جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً)**[4].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: يُسْتَحَبُّ لِلأَهْلِ وَالْوَلَدِ مُجَالَسَةُ الْمَرِيضِ وَمُؤَانَسَتِهِ فِي مَرَضِهِ، فَإِنَّهُ أَرْفَقُ بِهِ، وَآنَسُ لِوَحْشَتِهِ، وَأَسْرَعُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَتَلْبِيَةِ غَوْثِهِ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهَا: **(لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ)** أَيْ: مَلَكُ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ؛ لِنَزْعِ الرُّوحِ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ فِعْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَفِي أَكْثَرِ الْأُصُولِ جَاءَ ضَبْطُهَا بِفَتْحِ الْحُرُوفِ الثَّلَاثَةِ

---

(١) ابن القيم/ إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤).

(٢) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٣٥)(١/ ٩٥)، مسلم/صحيحه(٥٣١)(١/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه: مسلم/صحيحه(٥٣٢)(١/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه: البخاري/صحيحه(٣٣٥)(١/ ٧٤)، مسلم/صحيحه(٥٢١)(١/ ٣٧٠).

(نَزَلَ)، فَيَكُونُ تَأْوِيلُهَا: لمَّا حَضَرَتْ النَّبِيَّ ﷺ الْوَفَاةُ طَفِقَ يُحَذِّرُ مِنْ فِعْلِ اليَهُودِ والنَّصَارَى.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهَا: **(لمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً..)** دَلِيلٌ عَلَى حِرصِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحُنُوِّهِ وَعَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِأُمَّتِهِ أَنَّهُ كَانَ يُبَادِرُ الْمَوْتَ وَطَيَّ الصَّحِيفَةِ بِوَعْظِهَا -أَيْ: أُمَّتِهِ- وَتَذْكِيرِهَا مِنْ كُلِّ مَا يَغْلِبُهَا عَلَى دِينِهَا الَّذِي هُوَ سِرُّ نَجَاحِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَكَانَ ﷺ يَجْعَلُ الْخَمِيصَةَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْحُمَّى فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا[1].

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى)** اللَّعْنُ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ ﷻ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ مُخَالَفَةٍ عَظِيمَةٍ وَذَنْبٍ كَبِيرٍ، فَلَمَّا ذَكَرَ بَعْدَهُ قَوْلَهُ: **(اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)** دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مِن عَظَائِمِ الذُّنُوبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ غُلُوٌّ فِي الصَّالِحِينَ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ تَعَالَى فِي الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ، دَفَعَ الْغُلَاةَ إِلَى التَّبَرُّكِ بِهِمْ وَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَى قُبُورِهِم، وَاعْتِقَادِ بَرَكَةِ الْبُقْعَةِ الَّتِي يُقْبَرُونَ فِيهَا، وَأَنَّ الْعَمَلَ فِيهَا أَسْرَعُ قَبُولاً وَأَعْظَمُ أَجْرًا.

وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا لَوْثَةٌ شِرْكِيَّةٌ؛ لِأَجْلِهَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَهْلِهَا بِاللَّعْنِ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: **(لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى)** فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ لَعْنِ الْكُفَّارِ، وَأَصْحَابِ الْكَبَائِرِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدِ أَعْيَانٍ.

السَّادِسَةُ: قَوْلُهَا: **(يُحَذِّرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا)** بَيَانٌ لِلْبَاعِثِ الشَّرِيفِ الَّذِي دَفَعَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، وَجَاؤُوا لِلنَّاسِ بِشَرٍّ يَطَالُ دِينَهُمْ وَيُلَوِّثُ عَقَائِدَهُمْ، وَلِخَطَرِ الشِّرْكِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ بَادَرَ النَّبِيُّ ﷺ خُرُوجَ الرُّوحِ وَطَيَّ الصَّحِيفَةِ بِتَحْذِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّا صَنَعَ أُولَئِكَ؛ لِيَسْلَمَ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى اللهُ لَهُمْ.

السَّابِعَةُ: فِي الْحَدِيثِ دَلَالَةُ إِيمَاءٍ أَفَادَتْ أَنَّ عِلَّةَ طَرْدِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى هِيَ اتِّخَاذُهُم قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وُجُودًا وَعَدَمًا، فَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّ أَيَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ تَفْعَلُ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا تُعَاقَبُ بِمِثْلِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِالْيَهُودِ وَالنَّصارَى.

الثَّامِنَةُ: يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي فِي مَعْنَاهُ أَنَّ أَصْلَ هَذِهِ الْبِدْعَةِ كَانَتْ فِي

---

(١)انظر: ابن حجر/فتح الباري(١٠/ ٢٧٧).

الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، ثُمَّ سَوَّقَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَضَلَّتْ بِهَا طَوَائِفُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَالرَّافِضَةِ وَبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ.

التَّاسِعَةُ: قَوْلُهَا: (**لَوْلاَ ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا**) أَيْ: فَلَوْلَا أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ شِرْكٌ، وَأَنَّهُ مِنْ ضَلَالَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لَرَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِبْرَازِ الْقُبُورِ، وَلَبَادَرَ الصَّحَابَةُ ﷺ إِلَى إِبْرَازِ قَبْرِهِ؛ لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الْوَعْظِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ اتِّخَاذِ الْقبُورِ مَسَاجِدَ، بَلْ كَانَ يُغَيِّبُهَا وَيَطْمِسُهَا فِي الْأَرْضِ مَحْوًا لِلْأَسْبَابِ الَّتِي قَدْ تُطْمِعُ النَّاسَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَى مِثْلِ عَمَلِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ (**أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**)[1].

الْعَاشِرَةُ: قَوْلُهُ: (**خَلِيلٌ**) اسْتُعْمِلَ فِي عِدَّةِ مَعَانٍ، **قال ابن الأعرابي رَحِمَهُ اللَّهُ:** الْخَلِيلُ: الْحَبِيبُ، والصَّادِقُ، وَالنَّاصِحُ، وَالرَّفِيقُ[2].

وقال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْخَلِيلُ هُوَ الْمُنْقَطِعُ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: الْمُخْتَصُّ بِشَيْءٍ دُونَ غَيْرِهِ. وقِيلَ: هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْخَلَّةِ بِفَتْحِ الْخَاءِ وَهِيَ الْحَاجَةُ. وَقِيلَ: هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْخُلَّةِ بِضَمِّ الْخَاءِ وَهِيَ تَخَلُّلُ الْمَوَدَّةِ فِي الْقَلْبِ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْ لَا يَتَسَمَّعُ الْقَلْبُ لِغَيْرِهِ[3].

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: (**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ**) بَرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ مُتَّجِهَةٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ دُونَ اللهِ تَعَالَى خَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَلَأَ حُبُّهُ أَرْكَانَ قَلْبِهِ، أَوْ لَمْ يَعُدِ الْقَلْبُ يَسْمَعُ لِغَيْرِهِ، أَوْ يُصْرَفُ الْقَلْبُ لَهُ فِي إِدْرَاكِ الْحَوَائِجِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ شِرْكِ الْمَحَبَّةِ الَّذِي يُنَاقِضُ أَصْلَ التَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ حُبُّ اللهِ تَعَالَى وَحُبُّ رَسُولِهِ ﷺ أَشَدَّ إِلَيْهِ مِنْ حُبِّ مَا سِوَاهُمَا، أَلَا تَرَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَعَتَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا حُبَّ السِّوَى يَعْدِلُ عِنْدَهُمْ حُبَّ اللهِ تَعَالَى أَوْ أَشَدَّ بِالظُّلْمِ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِالعَذَابِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ**

---

(١) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٩٦٩)(٢/ ٦٦٦).

(٢) الأزهري/تهذيب اللغة (٦/ ٣٠٢).

(٣) النووي/ شرحه على مسلم (٥/ ١٣).

﴿الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٦٥].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)**[١].

فَإِنَّ تَقْدِيمَ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُمَا شَرْطٌ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ، لَا يَصِحُّ إِلَّا بِهِ، وَإِنَّ تَقْدِيمَ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَى حُبِّ السِّوَى، يَقَعُ فِي النَّاسِ عَلَى مَنَازِلَ مُتَفَاوِتَةٍ، فَلَهُ حَدٌّ أَدْنَى، وَلَهُ حَدٌّ أَعْلَى، وَثَمَّةَ مَنَازِلُ بَيْنَهُمَا.

فَمَنَ أَدْرَكَ حَدَّهُ الْأَدْنَى فَقَدْ أَتَى بِالْقَدْرِ الْمُجْزِئِ مِنَ الْإِيمَانِ، لَكِنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَنْزِلَةَ تَذَوُّقِ الْحَلَاوَةِ بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَنْ بَلَغَ حَدَّهُ الْأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ يَجِدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَلَذَّةَ الطَّاعَةِ .

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: **(فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)** **قَالَ ابْنُ الْمُلَقِّنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:** "إِنَّهُ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِمَا تَخَلَّلَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى وَحَلَاوَةِ ذِكْرِهِ وَمُنَاجَاتِهِ وَدَوَامِ مُرَاقَبَتِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ مُزِجَتْ أَجْزَاءُ قَلْبِهِ بِذَلِكَ، فَلَمْ يَتَّسِعْ قَلْبُهُ لِخَلِيلٍ آخَرَ، وَعَلَى هَذَا فَلَا يَكُونُ الْخَلِيلُ إِلَّا وَاحِدًا، وَمَنْ لَمْ يَنْتَهِ إِلَى ذَلِكَ، مِمَّنْ تَعَلَّقَ الْقَلْبُ بِهِ فَهُوَ حَبِيبٌ، وَلِذَلِكَ أَثْبَتَ ﷺ لِلصِّدِّيقِ وَلِعَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّهُمَا أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَنَفَى عَنْهُمَا الْخُلَّةَ، وَعَلَى هَذَا فَالْخُلَّةُ فَوْقَ الْمَحَبَّةِ"[٢].

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قَدْ ثَبَتَتْ خُلَّةُ نَبِيِّنَا ﷺ لِلَّهِ تَعَالَى بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيلٌ غَيْرُهُ، وَأَثْبَتَ مَحَبَّتَهُ لِخَدِيجَةَ وَعَائِشَةَ وَأَبِيهَا وَأُسَامَةَ وَأَبِيهِ وَفَاطِمَةَ وَابْنَيْهَا وَغَيْرِهِمْ ﷺ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ تَمْكِينُهُ مِنْ طَاعَتِهِ، وَعِصْمَتُهُ، وَتَوْفِيقُهُ، وَتَيْسِيرُ أَلْطَافِهِ، وَهِدَايَتُهُ، وَإِفَاضَةُ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ هَذِهِ مَبَادِيهَا.

وَأَمَّا غَايَتُهَا فَكَشْفُ الْحُجُبِ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى يَرَى بِبَصِيرَتِهِ مُتَعَلَّقَاتِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْرَارِ آيَاتِهِ، فَيَكُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْإِلَهِيِّ الصَّحِيحِ: **(فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي**

---

(١) أخرجه: البخاري/صحيحه(١٦)(١/١٢)، مسلم/صحيحه(٤٣)(١/٦٦).

(٢) ابن الملقن/ التوضيح لشرح الجامع الصحيح(٥/ ٦١٧).

يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ...)[1].

وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ: (سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ) فَلَا يُخَالِفُ هَذَا؛ لِأَنَّ الصَّحَابِيَّ يَحْسُنُ فِي حَقِّهِ الِانْقِطَاعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ[2]، أَيْ: طَاعَةً وَانْقِيَادًا وَاتِّبَاعًا؛ لِأَنَّ طَاعَةَ الْعَبْدِ لِلنَّبِيِّ ﷺ هِيَ طَاعَةٌ للهِ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: **(كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)** سُمِّيَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ خَلِيلًا مِنَ الْخَلَّةِ -بِالْفَتْحِ- الَّتِي هِيَ الْخَصْلَةُ، فَإِنَّهُ تَخَلَّقَ بِخِلَالٍ حَسَنَةٍ اخْتَصَّتْ بِهِ، أَوْ مِنَ التَّخَلُّلِ، فَإِنَّ الْحُبَّ تَخَلَّلَ شِغَافَ قَلْبِهِ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ، أَوْ مِنَ الْخُلَّةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ﷺ مَا كَانَ يَفْتَقِرُ حَالَ الِافْتِقَارِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَمَا كَانَ يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، فَيَكُونُ فَعِيلاً بِمَعْنَى فَاعِلٍ، وَفِي الْحَدِيثِ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ[3].

وَفِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخُلَّةَ أَرْفَعُ الْمَقَامَاتِ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا الْمَقَامُ الْأَعْلَى لِلْمُحِبِّينَ للهِ سُبْحَانَهُ[4].

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: **(وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا)** يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَأَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى اتَّخَذَ مُحَمَّدًا ﷺ خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، بَلْ هُوَ أَخُو النَّبِيِّ ﷺ وَحِبُّهُ؛ فَإِنَّ الْخُلَّةَ أَكْثَرُ مِنَ الْأُخُوَّةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ **(وَلَكِنَّهُ أَخِي)**[5].

وَقَالُوا فِي مَعْنَاهُ: إِنَّ حُبَّ اللهِ تَعَالَى لَمْ يُبْقِ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مَوْضِعًا لِغَيْرِهِ، إِنَّمَا هِيَ الْأُخُوَّةُ وَالْوِدَادُ[6].

وَقَالُوا أَيْضًا: **(لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنَ الْخَلْقِ خَلِيلاً)** أُرَاجِعُ إِلَيْهِ فِي الْحَاجَاتِ، وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي الْمُهِمَّاتِ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنَّ الَّذِي أَلْجَأُ إِلَيْهِ وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي جُمْلَةِ الْأُمُورِ، وَمَجَامِعِ

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٦٥٠٢) (٨/ ١٠٥).

(٢) النووي/ شرحه على مسلم (١٥/ ١٥١).

(٣) البيضاوي/ تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (٣/ ٥٣٧).

(٤) ابن هبيرة/ الإفصاح (٢/ ١٢٦).

(٥) ابن هبيرة/ الإفصاح(٢/ ١٢٦).

(٦) النووي/ شرحه على مسلم (١٥/ ١٥١).

الْأَحْوَالِ، هُوَ اللهُ تَعَالَى[1].

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: (**لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**) فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ كَذِبِ الشِّيعَةِ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ خَصَّ عَلِيًّا بِأَشْيَاءَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأُمُورِ الدِّينِ لَمْ يَخُصَّ بِهَا غَيْرَهُ[2].

وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ مَرْفُوعاً: (**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ**). وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ[3].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَىٰ: قَوْلُهُ: (**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ**) يُؤْذِنُ أَنَّ شِرَارَ النَّاسِ أَصْنَافٌ عَدِيدَةٌ، وَمِنْ بَيْنِ تِلْكَ الأَصْنَافِ مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ؛ لِأَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ، إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ**)[4].

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: (**مِنْ**) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّاسَ عَلَى تَفَاوُتٍ فِي الشَّرِّ؛ فَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنَّ أَعْتَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ ﷻ مَنْ قَتَلَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أَوْ قَتَلَ بِذُحُولِ[5] الْجَاهِلِيَّةِ**)[6].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)[7].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: (**بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ**) فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ

---

(١) البيضاوي/ تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (٣/ ٥٣٧).

(٢) ابن حجر/ فتح الباري (٧/ ١٤).

(٣) صحيح، أخرجه: البخاري معلقاً/صحيحه(٩/٤٩)، أحمد/مسنده(٣٨٤٤)(٦/٣٩٤).

(٤) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٢٩٤٩) (٤/ ٢٢٦٨).

(٥) الثأر، قال الليث رَحِمَهُ اللَّهُ: الذحل: طلب مكافأة بجناية جنيت عليك أو عداوة أتيت إليك. انظر: الأزهري/تهذيب اللغة (٤/ ٢٦٨).

(٦) صحيح، أخرجه: أحمد/ مسنده (٦٧٥٧) (١١/ ٣٧٠).

(٧) أخرجه: البخاري/صحيحه(٦٨٨٢)(٩/ ٦).

لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ)**(١)، وَمِنْ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارِ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، وَمَنْ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: **(أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)**. قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: **(وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ)**. قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: **(أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ)**(٢).

فَإِنَّ قَوْلَهُ فِي الْأَحَادِيثِ: (أَعْتَى)، وَ(شَرّ)، وَ(أَعْظَمُ) أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ تُؤْذِنُ بِأَنَّ النَّاسَ فِيهَا عَلَى تَفَاوُتٍ، وَأَنَّ أَعْتَاهُمْ وَشَرَّهُمْ وَأَعْظَمَهُمْ مِنْ حُظُوظِهَا مَنْ ذَكَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: **(مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ)** أَيْ: مَنْ تُدْرِكُهُمُ الْقِيَامَةُ، وَقَدْ سُمِّيَتْ سَاعَةً؛ لِأَنَّهَا دَاهِيَةٌ، عَظِيمَةُ الْخَطْبِ، وَكُلُّ دَاهِيَةٍ عَظِيمَةٍ تُسَمَّى سَاعَةً(٣).

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وهُمْ أَحْيَاء)** أَيْ: تَقُومُ بَعْضُ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ حَالَ وُجُودِهِمْ أَحْيَاءً.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَا يَتَعَارَضُ هَذَا مَعَ حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(لَا يَزَالُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ)**(٤)، وَفِي رِوَايَةٍ: **(حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)**(٥)؟

الْجَوَابُ: لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ أَنَّ حَدِيثَ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ وَهُمْ حَاضِرُونَ أَحْيَاءٌ، وَأَنَّ قَوْلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ: **(حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ)** أَيْ: بِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْقِيَامَةِ، وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: **(حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)** أَيْ: حَتَّى يَقْرُبَ

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٦٠٣٢) (٨/ ١٣).

(٢) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٤٤٧٧) (٦/ ١٨).

(٣) انظر: العثيمين/القول المفيد(١/٤٠٥).

(٤) أخرجه: البخاري/ صحيحه (٣٦٤٠) (٤/ ٢٠٧).

(٥) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/ سننه (٦) (١/ ٤).

قِيامُها، يُؤَكِّدُ ذَلِكَ حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: يَا عُقْبَةُ، اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللهِ، فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: **(لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ)**، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَجَلْ، **(ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ)**(١).

فَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ أَحْكَامُ هَذَا الْبَابِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ بِسَبَبِ الْبِنَاءِ عَلَى الْقُبُورِ وَالْأَضْرِحَةِ وَالْمَقَامَاتِ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ:

مِنْهَا: مَا يَظُنُّهُ الْقُبُورِيُّونَ أَنَّ لَهَا خُصُوصِيَّاتٌ بِأَنْفُسِهَا فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ وَجَلْبِ النَّعْمَاءِ. وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْبَلَاءَ يَدْفَعُ عَنْ أَهْلِ الْبُلْدَانِ بِقُبُورِ مَنْ فِيهَا مِنَ الصَّالِحِينَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ. فَالْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَا شَاءَ اللهُ، فَلَمَّا عَصَوْا الرَّسُولَ وَخَالَفُوا مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ انْتَقَمَ مِنْهُمْ. وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَمَّا تَغَيَّرُوا بَعْضَ التَّغَيُّرِ، جَرَى عَلَيْهِمْ عَامَ الْحَرَّةِ مِنَ النَّهْبِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَائِبِ مَا لَمْ يَجْرِ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ. وَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَرَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ عِمَارَةَ الْمَشَاهِدِ، وَخَرَابَ الْمَسَاجِدِ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ، وَدِينُ اللهِ عَلَى الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا: اجْتِمَاعُهُمْ لِزِيَارَةِ الْأَضْرِحَةِ وَالْمَشَاهِدِ وَاخْتِلَاطُ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَمَا يَقَعُ فِي ضِمْنِ ذَلِكَ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَتَرْكِ الصَّلَوَاتِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ صَاحِبَ التُّرْبَةِ تَحَمَّلَهَا عَنْهُمْ، بَلْ اشْتُهِرَ أَنَّ الْبَغَايَا يُسْقِطْنَ أُجْرَتَهُنَّ عَلَى الْبِغَاءِ فِي أَيَّامِ زِيَارَةِ الْمَشَايِخِ، تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ بِذَلِكَ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا فِي الْكُفْرِ غَايَةٌ؟

وَمِنْهَا: إِهْدَاءُ الْأَمْوَالِ وَنَذْرُ النُّذُورِ لِسَدَنَتِهَا الْعَاكِفِينَ عَلَيْهَا الَّذِينَ هُمْ أَصْلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ

---

(١) أخرجه: مسلم/ صحيحه (١٩٢٤) (٣/ ١٥٢٤).

وَكُفْرٍ، فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ عَلَى الْجُهَّالِ وَالطَّغَامِ(١) بِأَنَّ فُلَانًا دَعَا صَاحِبَ التُّرْبَةِ فَأَجَابَهُ، وَاسْتَغَاثَهُ فَأَغَاثَهُ، وَمُرَادُهُمْ بِذَلِكَ تَكْثِيرُ النَّذْرِ وَالْهَدَايَا لَهُمْ.

وَمِنْهَا: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الزُّوَّارِ إِذَا رَأَى الْبِنَاءَ الَّذِي عَلَى قَبْرِ صَاحِبِ التُّرْبَةِ سَجَدَ لَهُ، وَلَا رَيبَ أَنَّ هَذَا كُفْرٌ بِنَصِّ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، بَلْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، لِأَنَّ السُّجُودَ لِلْقُبَّةِ عِبَادَةٌ لَهَا، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ عِبَادَةِ النَّصَارَى لِلصُّوَرِ الَّتِي فِي كَنَائِسِهِمْ، فَإِنَّهُمْ عَبَدُوهَا وَمَنْ هِيَ صُورَتُهُ، وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الْقُبُورِ لَمَّا بَنُوا الْقِبَابَ عَلَى الْقُبُورِ آلَ بِهِمْ إِلَى أَنْ عُبِدَتْ الْقِبَابُ وَمَنْ بُنِيَتْ عَلَيْهِ مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ.

وَمِنْهَا: النَّذْرُ لِلْمَدْفُونِ فِيهَا، وَفَرْضُ نَصِيبٍ مِنْ الْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٣٦]، بَلْ هَذَا أَبْلَغُ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَبِيعُونَ أَوْلَادَهُمْ لِأَوْثَانِهِمْ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَدْفُونَ فِيهَا أَعْظَمُ فِي قُلُوبِ عُبَّادِ الْقُبُورِ مِنَ اللهِ وَأَخْوَفُ، وَلِهَذَا لَوْ طَلَبْتَ مِنْ أَحَدِهِمْ الْيَمِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى أَعْطَاكَ مَا شِئْتَ مِنَ الْأَيْمَانِ كَاذِبًا أَوْ صَادِقًا، وَإِذَا طَلَبْتَ بِصَاحِبِ التُّرْبَةِ لَمْ يُقَدِّمْ إِنْ كَانَ كَاذِبًا. وَلَا رَيْبَ أَنَّ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ مَا بَلَغَ شِرْكُهُمْ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، بَلْ كَانُوا إِذَا أَرَادُوا تَغْلِيظَ الْيَمِينِ، غَلَّظُوهَا بِاللَّهِ كَمَا فِي قِصَّةِ الْقَسَامَةِ وَغَيْرِهَا.

وَمِنْهَا: سُؤَالُ الْمَيِّتِ قَضَاءَ الْحَاجَاتِ، وَتَفْرِيجَ الْكُرُبَاتِ، وَالْإِخْلَاصُ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ فِي أَكْثَرِ الْحَالَاتْ.

وَمِنْهَا: التَّضَرُّعُ عِنْدَ مَصَارِعِ الْأَمْوَاتِ وَالْبُكَاءُ بِالْهَيْبَةِ وَالْخُشُوعِ لِمَنْ فِيهَا أَعْظَمُ مِمَّا يَفْعَلُونَهُ مَعَ اللهِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالصَّلَوَاتِ.

وَمِنْهَا: تَفْضِيلُهَا عَلَى خَيْرِ الْبِقَاعِ وَأَحَبِّهَا إِلَى اللهِ وَهِيَ الْمَسَاجِدُ، فَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالْعُكُوفَ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْعُكُوفِ فِي الْمَسَاجِدِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ شِرْكُ الْأَوَّلِينَ، فَإِنَّهُمْ يُعَظِّمُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَعْظَمَ مِنْ بُيُوتِ الْأَصْنَامِ، يَرَوْنَ فَضْلَهُ عَلَيْهَا، وَهَؤُلَاءِ يَرَوْنَ الْعُكُوفَ فِي الْمَشَاهِدِ أَفْضَلَ مِنَ الْعُكُوفِ فِي الْمَسَاجِدِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الَّذِي شَرَعَهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ إِنَّمَا هُوَ تَذْكِرَةُ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ:

---

(١) قال الليث: الطغام: أوغاد الناس. انظر: الأزهري/ تهذيب اللغة (٨/ ٨٦).

«زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ»[1]، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمَزُورِ بِالتَّرَحُّمِ عَلَيْهِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَسُؤَالِ الْعَافِيَةِ لَهُ، فَيَكُونُ الزَّائِرُ مُحْسِنًا إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى الْمَيِّتِ، فَقَلَبَ عُبَّادُ الْقُبُورِ الْأَمْرَ، وَعَكَسُوا الدِّينَ، وَجَعَلُوا الْمَقْصُودَ بِالزِّيَارَةِ الشِّرْكَ بِالْمَيِّتِ وَدُعَاءَهُ وَالدُّعَاءَ بِهِ، وَسُؤَالَهُ حَوَائِجَهُمْ وَنَصْرَهُمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَصَارُوا مُسِيئِينَ إِلَى نُفُوسِهِمْ وَإِلَى الْمَيِّتِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالْحِرْمَانِ إِلَّا حِرْمَانُهُمْ بَرَكَةَ مَا شَرَعَهُ اللهُ مِنَ الدُّعَاءِ وَالتَّرَحُّمِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُ، لَكَفَى.

وَمِنْهَا: إِيذَاءُ أَصْحَابِ الْقُبُورِ بِمَا يَفْعَلُهُ عُبَّادُ الْقُبُورِ بِهَا، فَإِنَّهُ يُؤْذِيهِمْ مَا يَفْعَلُونَهُ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَيَكْرَهُونَهُ غَايَةَ الْكَرَاهَةِ، كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ عليه السلام يَكْرَهُ مَا يَفْعَلُهُ النَّصَارَى، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ يُؤْذِيهِمْ مَا يَفْعَلُهُ أَشْبَاهُ النَّصَارَى عِنْدَ قُبُورِهِمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الْأَحْقَافُ:٥][2].

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ ﷺ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللهُ فِيهِ عَلَى قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

الثَّانِيَةُ: النَّهْيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الْأَمْرَانِ تَغَلَّظَ الْأَمْرُ.

الثَّالِثَةُ: الْعِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ. كَيْفَ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلاً، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي النَّزْعِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

الرَّابِعَةُ: نَهْيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

السَّادِسَةُ: لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

---

(١) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/سننه(١٥٦٩)(١/٥٠٠).

(٢) سليمان آل الشيخ/ تيسير العزيز الحميد(ص٢٨٠-٢٨٣).

السَّابِعَةُ: أَنَّ مُرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُنَا عَنْ قَبْرِه.

الثَّامِنَةُ: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

التَّاسِعَةُ: فِي مَعْنَى اتِّخَاذِهِ مَسْجِداً.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنِ اتَّخَذَهَا مَسْجِداً وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشِّرْكِ قَبْلَ وُقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ: الرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا شَرُّ أَهْلِ الْبِدَعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمْ: الرَّافِضَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ.

وَبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ الْقُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَا أُكْرِمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مِنَ الْمَحَبَّةِ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الْإِشَارَةُ إِلَى خِلَافَتِهِ رضي الله عنه.

الْبَابُ (٢٠)

مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

هَذَا الْبَابُ مُكَمِّلٌ لِمَا قَبْلَهُ، وَهُوَ بَيَانٌ لِخَطَرِ الْغُلُوِّ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقُودُ إِلَّا إِلَى هَلَاكٍ وَفَسَادٍ، فَإِمَّا أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبْدِاللَّهِ بنِ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (**فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ**)(١)، فَقَوْلُهُ: (**هَجَمَتْ عَيْنُكَ**) أَيْ: غَارَتْ فِي جُحْرِهَا لِضَعْفِ الْبَدَنِ وَشِدَّةِ السَّهَرِ، وَ(**نَفِهَتْ**): أَعْيَتْ وَتَعِبَتْ.

وَإِمَّا أَنْ يُهْلِكَ الدِّينَ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: (**لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ**)(٢).

وَبَيْنَ هَلَاكِ النَّفْسِ وَالدِّينِ تَلَازُمٌ، فَإِذَا هَلَكَ الصَّالِحُونَ بِغُلُوِّهِمْ تَطَرَّقَ الْخَلَلُ إِلَى الدِّينِ وَانْدَرَسَ مِنْ حَيَاةِ مَنْ حَوْلَهُمْ، وَإِذَا هَلَكَ الدِّينُ تَطَرَّقَ الْخَلَلُ إِلَى النَّفْسِ فَهَلَكَتْ بِالْمَعْصِيَةِ.

وَالْغُلُوُّ فِي الدِّينِ أَخْطَرُ مِنَ الْغُلُوِّ فِيمَا سِوَاهُ، وَأَشَدُّهُ مَا كَانَ فِي التَّوْحِيدِ، كَالْغُلُوِّ فِي الصَّالِحِينَ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، فَإِنَّ الْغُلُوَّ يَبْعَثُ أَصْحَابَهُ إِلَى تَعْظِيمِ صُلَحَائِهِمْ حَالَ حَيَاتِهِمْ، فَرُبَّمَا سَجَدُوا لَهُمْ وَذَبَحُوا فِي وُجُوهِهِمْ عِنْدَ قُدُومِهِمْ، وَرُبَّمَا دَعَوْهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، وَالْغُلُوُّ يَبْعَثُ الْغُلَاةَ إِلَى تَعْظِيمِ صُلَحَائِهِمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، فَيَتَّخِذُونَ لَهُمُ الْقُبُورَ الظَّاهِرَةَ، وَيَبْنُونَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ، وَيَتَّخِذُونَ لَهُمُ التَّمَاثِيلَ وَالتَّصَاوِيرَ، وَقَدْ يَدْعُونَهُمْ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ وَيَذْبَحُونَ وَيَنْذِرُونَ لَهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشِّرْكِيَّاتِ الَّتِي تُفْسِدُ الدِّينَ وَتَأْتِي عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ أَوْرَدَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْبَابَ رُغْمَ أَنَّ الْأَبْوَابَ الَّتِي قَبْلَهُ قَدْ تُغْنِي عَنْهُ بَعْضَ الْغَنَاءِ؛ لَكِنَّهُ أَفْرَدَهُ لِمَا يَرَى مِنْ شُيُوعِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الْأَمْصَارِ الْمُسْلِمَةِ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ عَلَى جَادَّةٍ، وَيُبْرِزَ لَهُمُ اهْتِمَامَ النَّبِيِّ ﷺ وَحِرْصَهُ عَلَى أُمَّتِهِ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَكَلُّ أَوْ يَمَلُّ مِنْ وَعْظِهِمْ وَتَذْكِيرِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ مَرَضُ مَوْتٍ، وَلَا شِدَّةُ عِلَّةٍ؛ رَجَاءَ أَنْ يَحْذَرُوا مُفْسِدَاتِ الدِّينِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ وَانْتَهَتْ بِهِمْ إِلَى زَوَالٍ، فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ كُلِّ

---

(١) أخرجه: البخاري/ صحيحه (١١٥٣) (٢/ ٥٤).

(٢) ضعيف، أخرجه: أبو داود/ سننه (٤٩٠٤) (٤/ ٢٧٦).

وَسِيلَةٍ تَقُودُ إِلَى حَرَامٍ، فَضْلاً عَنْ أَنْ تَنْقَلِبَ إِلَى وَثَنٍ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

وَقَدْ أَوْرَدَ الْمُصَنِّفُ تَحْتَ هَذَا الْبَابِ جُمْلَةً مِنَ الْأَدِلَّةِ الْوَاعِظَةِ الَّتِي تَنْشُرُ النُّفْرَةَ فِي الْقُلُوبِ، لِتَنْأَى عَنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ، وَمُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، وَبَدَأَهَا بِقَوْلِهِ:

رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)**(١).

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ)** دُعَاءٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَحْفَظَهُ اللهُ، وَلَا يَجْعَلْ فِي أَثَرِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِتْنَةً لِلنَّاسِ فِي دِينِهِمْ، وَدُعَاؤُهُ ﷺ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى رَحْمَتِهِ بِأُمَّتِهِ، وَحِرْصِهِ عَلَى سَلَامَةِ دِينِهِمُ الَّذِي هُوَ سِرُّ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، فَلَا يَزِيغُوا عَنْهُ، وَلَا يُلَابِسُوهُ بِشِرْكٍ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: **(وَثَنًا يُعْبَدُ)** أَيْ: مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى، وَالْوَثَنُ: كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونَ اللهِ مِنْ بَشَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ حَجَرٍ، أَوْ قَبْرٍ، أَوْ نُورٍ، أَوْ ظُلْمَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الصَّنَمِ، فَإِنَّهُ يَعُمُّ الْمَحْسُوسَ وَالْمَعْنَوِيَّ، وَذَا الْحَيَاةِ، وَالْمَيِّتَ، وَالْجَمَادَ. وَالصَّنَمُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِيمَا لَهُ صُورَةُ الْأَحْيَاءِ مِنْ إِنْسَانٍ، أَوْ حَيَوَانٍ، أَوْ طَيْرٍ، سَوَاءٌ كَانَ حَيًّا، أَوْ مَيِّتًا، وَقَدْ مُثِّلَ لَهُ بِمِثَالٍ قَرِيبٍ مِنْ صُورَتِهِ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: **(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ)** يَشْمَلُ عِبَادَةَ الْوَثَنِ دُونَ اللهِ تَعَالَى، وَيَشْمَلُ اتِّخَاذَهُ وَسِيلَةً تُقَرِّبُ مِنَ اللهِ بِزَعْمِهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى الْوَسَائِلَ وَالْوَسَائِطَ الشِّرْكِيَّةَ عِبَادَةً، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزُّمَرُ:٣]، وَيَشْمَلُ أَدَاءَ الْعِبَادَةِ عِنْدَ تِلْكَ الْأَوْثَانِ بِاعْتِقَادِ أَنَّهَا أَرْضَى للهِ، وَأَسْرَعُ فِي الْقَبُولِ، وَأَعْظَمُ فِي الْأَجْرِ.

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: **(اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ)** دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْغُلُوَّ فِي الصَّالِحِينَ مِنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ الَّتِي تَقُودُ إِلَى فَسَادِ الدِّينِ، وَلِذَا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَكُونُ أَشَدَّ غَضَبًا عَلَى مَنْ يُغَالِي بِهَا، وَيَتَّخِذُ مِنَ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ نِدًّا للهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ الْقَوِيُّ الْقَدِيرُ الْقَاهِرُ فَوْقَ الْعَالَمِينَ.

وَقَوْلُهُ: **(غَضَبُ اللَّهِ)** دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى إِثْبَاتِ صِفَةِ الْغَضَبِ للهِ، وَغَضَبُ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ

---

(١) صحيح، أخرجه: مالك/الموطأ(٤٧٥)(١/٢٤٣).

كَغَضَبِ الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّ للهِ صِفَاتٍ تُنَاسِبُ كَمَالَهُ، وَلِلْمَخْلُوقِ صِفَاتٌ تُنَاسِبُ نَقْصَهُ، وَصَدَقَ اللهُ تَعَالَى الْقَائِلِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشُّورَى:١١].

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: **(اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)** إِمَّا بِالصَّلَاةِ، وَالدُّعَاءِ، وَالذِّكْرِ، وَالْمُنَاجَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالذَّبْحِ، وَالنَّذْرِ، وَغَيْرِهَا عَلَى الْقُبُورِ أَوْ حَوْلَهَا، وَإِمَّا بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ -الَّتِي هِيَ دُورُ الْعِبَادَةِ- عَلَيْهَا، فَكِلَا الْأَمْرَيْنِ شَرٌّ؛ لِأَنَّ مَنْشَأَهُ التَّعْظِيمُ الْخَاطِئُ وَالْمُعْتَقَدُ الْفَاسِدُ؛ فَإِنَّ الْغُلُوَّ فِي حُبِّ الصَّالِحِينَ وَتَعْظِيمِهِمْ دَفَعَهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِمْ اعْتِقَادًا أَنَّ لَهُمْ إِرَادَةً مُؤَثِّرَةً، وَجَاهًا عَظِيمًا يُحَقِّقُ لَهُ مَا يُرِيدُ مِنْ جَلْبِ الْخَيْرِ أَوْ دَفْعِ الضُّرِّ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي نُونِيَّتِهِ:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ[1].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بَالَغَ الْمُسْلِمُونَ فِي سَدِّ الذَّرِيعَةِ فِي قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَعْلَوْا حِيطَانَ تُرْبَتِهِ، وَسَدُّوا الدَّاخِلَ إِلَيْهَا، وَجَعَلُوهَا مُحَدَّقَةً بِقَبْرِهِ ﷺ، ثُمَّ خَافُوا أَنْ يُتَّخَذَ مَوْضِعُ قَبْرِهِ قِبْلَةً إِذْ كَانَ مُسْتَقْبِلَ الْمُصَلِّينَ فَتَتَصَوَّرُ إِلَيْهِ الصَّلَاةُ بِصُورَةِ الْعِبَادَةِ، فَبَنَوْا جِدَارَيْنِ مِنْ رُكْنَيِ الْقَبْرِ الشَّمَالِيَّيْنِ، وَحَرَفُوهُمَا حَتَّى الْتَقَيَا عَلَى زَاوِيَةٍ مُثَلَّثٍ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ، حَتَّى لَا يَتَمَكَّنَ أَحَدٌ مِنَ اسْتِقْبَالِ قَبْرِهِ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَوْلَا ذَلِكَ؛ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ[2].

وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النَّجْمُ: ١٩] قَالَ: «كان يَلُتُّ لهم السَّوِيقَ، فَمَاتَ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ»[3].

وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»[4].

فِي الْأَثَرِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(اللَّاتُ)** بِتَخْفِيفِ التَّاءِ هِيَ صَخْرَةٌ بَيْضَاءُ كَبِيرَةٌ، عَلَيْهَا نُقُوشٌ، بُنِيَ عَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ، هُدِمَتْ بَعْدَ إِسْلَامِ ثَقِيفٍ، أَرْسَلَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ رضي الله عنه فَهَدَمَهَا،

---

(١) ابن القيم/نونيته(ص ٢٥٢).

(٢) انظر: القرطبي/المفهم(٥/٥٨)، ابن رجب/فتح الباري(٣/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه: ابن جرير/تفسيره(٢٢/٤٧).

(٤) أخرجه: البخاري/صحيحه(٤٨٥٩)(٦/١٤١).

وَحَرَّقَهَا بِالنَّارِ، وَكَانَ عَلَيْهَا سَدَنَةٌ وَخَدَمٌ، وَكَانَ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ يَتَبَرَّكُونَ بِهَا، وَيَطْلُبُونَ مِنْهَا قَضَاءَ الْحَوَائِجِ وَتَفْرِيجَ الْكُرَبِ.

وَقِيلَ: (اللَّاتَّ) اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ لَتَّ يَلِتُّ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ رَجُلٌ صَالِحٌ كَانَ يَلِتُّ السَّوِيقَ لِلْحَجِيجِ عَلَى صَخْرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ عَظَّمَ النَّاسُ تِلْكَ الصَّخْرَةَ، وَقِيلَ: عَظَّمُوا الرَّجُلَ وَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ.

وَقَوْلُهُ: **(وَالْعُزَّى)** شَجَرَةٌ كَانَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَقِيلَ: هِيَ ثَلَاثُ شَجَرَاتٍ مِنَ السَّمْرِ بُنِيَ عَلَيْهِنَّ بَيْتٌ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ كَاهِنَةٌ، تَحْضُرُ الْجِنَّ لِإِضْلَالِ النَّاسِ، اتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَكَّةَ صَنَمًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ، وَكَانُوا يُفَاخِرُونَ بِذَلِكَ؛ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فِي يَوْمِ أُحُدٍ بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(أَجِيبُوهُ، قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ)**، فَلَمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ﷺ فَهَدَمَهَا وَقَطَعَ الْأَشْجَارَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، قَالَ: **(لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا)**، فَرَجَعَ خَالِدٌ ﷺ إِلَيْهَا مَرَّةً ثَانِيَةً، فَوَجَدَ عِنْدَهَا السَّدَنَةَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ هَرَبُوا إِلَى الْجِبَالِ، فَجَاءَ، فَإِذَا بِامْرَأَةٍ عُرْيَانَةٍ نَاشِرَةٍ شَعْرَهَا، فَعَلَاهَا بِالسَّيْفِ وَقَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ ﷺ: **(تِلْكَ الْعُزَّى)**.

وَقَدْ سَمَّى الْمُشْرِكُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ يَوْمَئِذٍ بِأَسْمَاءَ اشْتَقُّوهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى بِزَعْمِهِمْ، فَالْعُزَّى: مُؤَنَّثُ أَعَزَّ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنِ اسْمِ اللهِ **(الْعَزِيزِ)**.

وَ**(اللَّاتَ)** قَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللهِ)، وَهُوَ مَحْضُ فِرًى.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: **(كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ)** اللَّتُّ: خَلْطُ الشَّيْءِ بِغَيْرِهِ، يُقَالُ: لَتَّ السَّمْنَ بِالدَّقِيقِ: إِذَا خَلَطَهُ بِهِ، وَقَالُوا: اللَّتُّ بَلُّ السَّوِيقِ[1].

وَالسَّوِيقُ: هُوَ الشَّعِيرُ إِذَا حُمِّصَ، وَطُحِنَ، ثُمَّ يُخْلَطُ بِتَمْرٍ، أَوْ سَمْنٍ، أَوْ عَسَلٍ، أَوْ غَيْرِهَا، وَالْمُرَادُ: أَنَّ رَجُلًا صَالِحًا كَانَ شَدِيدَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ عَجْنُ السَّوِيقِ بِتَمْرٍ أَوْ سَمْنٍ عَلَى صَخْرَةٍ عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يُقْرِي بِهِ الْحُجَّاجَ وَالْعُمَّارَ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: **(فَمَاتَ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ)** أَيْ: لَمَّا مَاتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَقَدْ كَانَ مَرْضِيًّا عِنْدَ النَّاسِ؛ لِصَلَاحِ عَمَلِهِ، أَغْرَاهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَتَّخِذُوا لَهُ نُصُبًا يُذَكِّرُهُمْ مَا كَانَ عَلَيْهِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ

---

(١) الأزهري/ تهذيب اللغة (١٤/ ١٨٠).

بِهِمْ الشَّيْطَانُ حَتَّى عَكَفُوا عِنْدَ هَذَا النُّصُبِ وَعَبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالِاعْتِكَافُ: حَبْسُ النَّفْسِ فِي الْمَكَانِ بِقَصْدِ الْقُرْبَةِ[1].

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْقَصْدَ الْحَسَنَ لَا يَقْلِبُ الْمَحْظُورَ إِلَى مُبَاحٍ مَشْرُوعٍ، فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسَ اتَّخَذُوا لِذَلِكَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ نُصُبًا أَوْ مَقَامًا؛ لِيَذْكُرُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاحٍ، فَتَقْوَى بِذَلِكَ عَزَائِمُهُمْ، وَيَشْتَدُّ صَلَاحُهُمْ. وَقَدْ عُلِمَ مِنْ دِينِ اللهِ أَنَّ اتِّخَاذَ النُّصُبِ مَمْنُوعٌ فِي ذَاتِهِ؛ لَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَزَلْ يَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهِ وَيُزَيِّنُ لَهُمْ حَبَائِلَهُ، وَيَسْتَدْرِجُهُمْ إِلَى شِبَاكِهِ حَتَّى عَبَدُوهُ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ النَّجْمِ يَمْقُتُ مَا صَنَعُوا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: **(لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ)**. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ[2].

فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: **(لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ)** دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِهَا فِي حَقِّ النِّسَاءِ، وَبِهِ قَالَ بَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ، وَالْمَالِكِيَّةُ، وَالْحَنَابِلَةُ فِي رِوَايَةٍ، وَاخْتَارَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّعْنَ إِبْعَادٌ وَطَرْدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَهُوَ مِنْ أَشَدِّ الْعُقُوبَاتِ، وَلَا عُقُوبَةَ إِلَّا عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ حَرَامٍ.

قُلْتُ: الْأَصَحُّ جَوَازُ زِيَارَتِهَا مَا تَجَرَّدَتْ عَنِ الْمَلَابِسِ الْمَحْذُورِ، كَالنِّيَاحَةِ، وَالنَّدْبِ، وَالْجَزَعِ؛ وَدَلِيلُ جَوَازِ زِيَارَتِهَا مَا يَلِي:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْحَدِيثَ بِلَفْظِ: **(زَائِرَاتِ الْقُبُورِ)** ضَعِيفُ الْإِسْنَادِ، وَالصَّحِيحُ رِوَايَةُ التِّرْمِذِيِّ، وَلَفْظُهَا: **(زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ)**، وَهِيَ أَقْوَى مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ؛ لِأَنَّ **(زَوَّارَاتِ)** فِيهِ مُبَالَغَةٌ؛ وَالْمُبَالَغَةُ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ قَبِيحَةٌ بِلَا خِلَافٍ.

الثَّانِي: حَدِيثُ أُمِّ عَطِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: **"نُهِينَا عَنِ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا"**[3].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **(نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّ**

---

(١) انظر: ابن الأثير/ النهاية(٣/ ٢٨٤).

(٢) حسن، أخرجه: أبو/ سننه(٣٢٣٦)(٣/ ٣٦٢).

(٣) صحيح، أخرجه: ابن ماجه/ سننه (١٥٧٧) (١/ ٥٠٢).

فِيهَا عِبْرَةً...)[1].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(وَكُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ بَدَا لِي فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوا وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا)**[2].

عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ فِي قَوْلِهِ: **(فَزُورُوهَا)** خِطَابٌ لِلْقَبِيلَيْنِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالزِّيَارَةِ فِي الْحَدِيْثِ لِلْإِذْنِ لَا لِلْوُجُوبِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ بَعْدَ حَظرٍ ، وَالْأَمْرُ بَعْدَ الْحَظْرِ يُفِيدُ الْإِبَاحَةَ.

وَلَمَّا كَانَ حُكْمُ الزِّيَادَةِ مَحْظُورَاً، ثُمَّ ذَكَرَ حُكْمَ الْجَوَازِ بَعْدَهُ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَحَادِيث الْحَظْرِ مَنْسُوخَةٌ بِأَحَادِيثِ الْجَوَازِ أَوْ أَنَّهَا وَرَدَتْ وَالنَّاسُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا زَالَتْ فِيهِمْ بَعْضُ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَالنِّيَاحَةِ، وَالنَّدَبِ، وَالْجَزَعِ عِنْدَ مُصِيبَةِ الْمَوْتِ، فَلَمَّا تَرَكَهُ النَّاسُ أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ بِالزِّيَارَةِ؛ لِأَنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَتُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُثِيرُ الْهِمَّةَ فِي الْعَمَلِ؛ وَيُؤَكِّدُ نَسْخَ الْحَظْرِ بِالْجَوَازِ حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَقْبَلَتْ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْمَقَابِرِ فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قَالَتْ: "مِنْ قَبْرِ أَخِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي بَكْرٍ" فَقُلْتُ لَهَا: أَلَيْسَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ؟ قَالَتْ **"نَعَمْ كَانَ نَهَى ثُمَّ أَمَرَ بِزِيَارَتِهَا"**[3].

الثَّالِثُ: عَنْ مُحَمَّدِ بنِ قَيسِ بنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أُمِّي قَالَ: فَظَنَنَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا، وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلَّا أَنِ اضْطَجَعْتُ

---

(١) صحيح، أخرجه: الحاكم/ مستدركه(١٣٨٦) (١/ ٥٣٠).

(٢) صحيح، أخرجه: البيهقي/ سننه الكبرى (٧١٩٨) (١٢٩/٤).

(٣) صحيح، أخرجه: البيهقي/ سننه الكبرى (٧٢٠٧) (١٣١/٤).

فَدَخَلَ، فَقَالَ: (**مَا لَكِ؟ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً**) قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، قَالَ: (**لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**) قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: (**فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟**) قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي، ثُمَّ قَالَ: (**أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟**) قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، نَعَمْ، قَالَ: (**فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ**)، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ (**قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**)[١].

فَتَعْلِيمُ النَّبِيِّ ﷺ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَيْفَ تَقُولُ يَقْتَضِي الْإِذْنَ بِالزِّيَارَةِ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ مَمْنُوعَةً لَمَا أَخَّرَ حُكْمَ الْمَنْعِ عَنْهَا.

الرَّابِعُ: وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، أَتَى عَلَى امْرَأَةٍ تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا، فَقَالَ لَهَا: (**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**)، فَقَالَتْ: وَمَا تُبَالِي بِمُصِيبَتِي فَلَمَّا ذَهَبَ، قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوتِ، فَأَتَتْ بَابَهُ، فَلَمْ تَجِدْ عَلَى بَابِهِ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: (**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ**)، أَوْ قَالَ: (**عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ**)[٢].

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَمَوْضِعُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُنْكِرْ عَلَى الْمَرْأَةِ قُعُودَهَا عِنْدَ الْقَبْرِ، وَتَقْرِيرُهُ حجَّةٌ"[٣].

الْخَامِسُ: أَظْهَرَتِ السُّنَّةُ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الزِّيَارَةِ أَنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ، وَهِيَ مَطْلُوبَةٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالْحُكْمُ دَائِرٌ مَعَ عِلَّتِهِ وُجُوداً وَعَدَماً.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: (**وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ**) أَيْ: الصَّلَاةَ عِنْدَهَا، أَوِ الْبِنَاءَ عَلَيْهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ دَلِيلِهِ وَهُوَ مِنَ الشِّرْكِ.

---

(١) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٩٧٤) (٢/ ٦٦٩).

(٢) أخرجه: مسلم/ صحيحه (٩٢٦) (٢/ ٦٣٧).

(٣) ابن حجر/ فتح الباري (٣/ ١٤٨).

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: (**وَالسُّرُجَ**) جَمْعُ سِرَاجٍ، وَكَانُوا يُوقِدُونَهَا عَلَى الْقُبُورِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْغُلُوِّ الَّذِي يَقُودُ إِلَى التَّعْظِيمِ، وَاتِّخَاذِ الْقُبُورِ أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَالغُلُوُّ مَذْمُومٌ كُلُّهُ، بَلْ هُوَ مِنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ، وَأَسْبَابِ هَلَاكِ الْأَنْفُسِ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْأَوْثَانِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يَخَافُ وُقُوعَهُ.

الرَّابِعَةُ: قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنَ اللهِ.

السَّادِسَةُ: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَوْثَانِ.

السَّابِعَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ.

التَّاسِعَةُ: لَعْنُهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ.

الْعَاشِرَةُ: لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

فِهْرِسُ الْقِسْمِ (٢)